الأضواء

اللغة العربية

الصف 1 الثانوى

قصة أبو الفوارس «عنتـرة»

الفصل الدراسى الثانى

2024 – 2025

KTABYEG.COM

الفهرس

أهم الشخصيات التى وردت فى الفصل الدراسى الثانى ٣

الفصل التاسع: رحيلُ عبلةَ ٤

الفصل العاشر: حَياةُ الغُرَبَاء ٨

الفصل الحادى عشر: الفارسُ النبيلُ ١٢

الفصل الثانى عشر: المهرُ الغَالِى ١٥

الفصل الثالث عشر: رحلةُ المخاطرِ ١٧

الفصل الرابع عشر: إقَامَةٌ كريمَةٌ ٢٣

الفصل الخامس عشر: عودةٌ إلى الديارِ ٢٥

الفصل السادس عشر: خاتمةٌ سعيدةٌ ٣١

KTABYEG.COM

أهم الشخصيات التى وردت فى الفصل الدراسى الثانى

- **زبيبة**: «أمّ عنترة»، حبشية الأصل، وقد أخذت أسيرةً، وظلت طوال حياتها تحفظ جميل (شدَّاد) وتفى له.
- **شيبوب**: «أخو عنترة لأمّه» أسر معها، وكان يلازم عنترةَ، وكان موضع سرِّه، وكان ينقل لعنترة الأخبار، وهو الذى أذاع أن عنترة قد قتل حينما رآه يسقط جريحًا، كما أنه هو الذى أذاع عودة عنترة بمهر عبلة إلى قومه.
- **مالك بن قراد**: «سيِّد من سادات عبس»، أخو شداد ووالد عبلة، شقى بحبِّ عنترة لعبلة حينًا؛ مما اضطره إلى الهجرة إلى أصهاره بنى شيبان.
- **عمرو بن مالك**: «ابن عم عنترة» وأخو عبلة، ظلَّ حياته يكره عنترة، ويقف حائلًا بين عنترة والزواج بعبلة.
- **عمارة بن زياد**: «شابٌّ من شباب عبس» يفوقهم غنى وجمالًا وحسبًا، ورغب فى الزواج من عبلة، ولكنَّه لم يوفَّق، وخاصة بعد أن عاد عنترة بمهر عبلة الذى حدده والدها (ألف من النوق العصافير).
- **قيس بن مسعود**: «سيد من سادات شيبان» هاجر إليه (مالك بن قراد) ونزل عليه ضيفًا حين ابتعد عن قومه، أعجب بعنترة حينما أبقى على ابنه ولم يقتله، واستضافه عنده، وكان عونًا له حين خطب عبلة من عمِّه مالك.
- **بسطام بن قيس**: «فارس شيبان وابن سيدها»، أغراه عمرو بن مالك (أخو عبلة) بقتال عنترة؛ ليخلو له الجوُّ، ويتزوج عبلة، ولكن عنترة تمكن منه أكثر من مرة عند مبارزته، وفى النهاية أبقى على حياته وسلَّمه لوالده الذى قدر له هذا الجميل.
- **مـــروة**: «أخت عنترة من أبيه»، وتعرف ما يكنُّه أخوها عنترة من حب لعبلة، وساعدته على هذا الحب والزواج بها فى آخر الأمر.
- **النعمان بن المنذر**: «ملك الحيرة» قصده عنترة؛ ليسلب منه النوق العصافير، ويقدمها مهرًا لعبلة. أكرم عنترة بعد وقوعه فى الأسر، واستعان بعنترة فى قتال أعدائه، ثم زوده بكثير من الهدايا، وأذن له بالعودة إلى قومه بعد أن أعطاه ما يشاء من النوق العصافير.
- **أبو الحارث**: «صديق النعمان ونديمه» أعجب بعنترة وبشعره، وصحبه فى غزواته، وشفع له عند النعمان حينما أراد العودة إلى وطنه.
- **عبلة: بنت (مالك بن قراد)**: «وهى ابنة عم عنترة» وموضع حبه، تقدم إليها كثير من الخطاب، ولكن حبها لعنترة حال دون التزوج من أحد منهم، حتى تحقق ما ترجوه وزوجت من عنترة.
- **قيس بن زهير بن جذيمة**: «هو ابن ملك عبس» يعرف أبوه لعنترة مكانته، ويقدر بطولته، ويعتزبه.

KTABYEG.COM

الفصل التاسع

رحيـــلُ عبلـــةَ

تفاصيل الأحداث

١ أسباب رحيل عبلة وأسرتها إلى أخوالها بنى شيبان

خلا وادى الجواء من منازل (مالك بن قراد)، حيث نزح بأهله إلى أرض شيبان، وقد ضاقت به الحياة فى قومه منذ جهر عنترة بما ينطوى عليه قلبه من حبّ عبلة والتّعلق بها، وما اعتزمه من عداوة كلّ من يجرؤ على طلب زواجها.

وكان مالك يضمر فى قرارة نفسه إحساسًا بالمعرّة(١) من أن يعطى ابنته لعنترة وإن كان فارس قومه وحاميهم، وما كان مثله ليصهر إلى رجل ولدته زبيبة الأمة فيمزج دماءه بدماء عبد، وإن كان ذلك عنترة الفارس ابن أخيه شداد.

وكان عمرو بن مالك أشدّ منه أنفة(٢) وكبرًا، فكان يؤثر صديقه (عمارة بن زياد) السَّيد الوهَّاب، المنحدر من سلسلة الأمجاد من الآباء، والحرائر من الأمهات والجدَّات.

ولم تكن عبلة بأقلَّ ضيقًا وتبرّمًا بالإقامة فى عبس من أخيها وأبيها، فقد وجدت نفسها قطب الأحاديث فى أندية قومها، وهدف الحسد من صاحباتها، لا يخلو يوم من نفرة(٣) فى الحىِّ من أجلها، حتى كان القتال يدور بين طوائف متنازعة فى قبيلتها، فمنهم من كان يهتف بعنترة، ومنهم من كان يتحيَّز لعمارة، وهم فى كلِّ يوم وفى كلِّ ليلة يتصادمون ويتنازعون حول اسمها، فانطوت(٤) على نفسها كئيبة لا ترضى بأن تزور، ولا أن تخرج للقاء من يأتى إليها زيارةً، وكانت صاحباتها كلما جئن إليها لم يجدنها على عادتها مرحةً مستبشرةً تملأ المجالس بهجةً، وتبثُّ فيها روحًا من صوتها العذب الضاحك. وكان ألمها يزداد كلَّما تذكَّرت ما كان بينها وبين عنترة فى تلك الليلة إذ قسا عليها، وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة كأنّها الأمة، ولم يتردَّد فى غضبه أن ناداها بالويل وأغلظ فى حديثه لها، ولم يرض منها بما كانت تهدهد(٥) به نفسه من مواساتها واعتذارها، بل إنه هدَّدها بهديته الدموية إذ قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها.

وكانت فى اعتكافها ساكنةً تقضى أكثر الوقت ضعيفةً فى فراشها وتبكى أحيانًا ولا تدرى ما الذى أبكاها، حتى حال(٦) لونها، وذبلت نضرتها، وامتلأ صدرها كآبةً وهمًّا!!

وضاق المقام بأبيها مالك وحار فى أمره كيف يطيق الحياة وهو يسمع الناس ينشدون شعر عنترة فى ابنته ويستعيدونه فى مجالسهم، فكانت أنفته تثور، ولكنه كان لا يستطيع أن يقاتل الناس كلَّ يوم، وهم لا يفعلون أكثر مما يفعله العرب فى إنشاد قصائد الشعراء. ولكنّ ولده عمرًا كان لا يقدر أن يمسك نفسه، فكان لا يمرّ بقوم يتغنَّون بذلك الشعر إلا بادرهم بالسَّبِّ وهمَّ بقتالهم؛ فأشفق مالك من ذلك كلّه، ولم يجد مخرجًا من الأمر إلا أن يعلن قومه بأنه لن يزوِّج ابنته لعمارة ولا غير عمارة، ثم غادر أرضه ورحل إلى أرض أصهاره بنى شيبان.

(١) المعرّة: العار.
(٢) أنفة: شموخًا وعزة ونفورًا.
(٣) نفرة: المراد: خروج للقتال.
(٤) فانطوت: المراد: انعزلت.
(٥) تهدهد: المراد: تخفف.
(٦) حال: تغير.

KTABYEG.COM

٢ حالــة عنترة بعد رحيلهـا

وأمّا عنترة فإنه لم يطق البقاء فى عبس بعد أن رحلت عنها عبلة، فهام[٧] على وجهه فى الصحراء، فكان لا يلمّ[٨] بالحىّ إلا بين حين وحين، وكانت زيارته لا تزيد على أن تكون زيارةً لوادى الجواء ليقضى أربه[٩]، فيتنسّم نسيمه، وينشد عنده بعض شعره، ثم يعود إلى صحرائه ليضرب فى شعابها، وجاء يومًا إلى أرض الشُّربّة، وزار طلل[١٠] دار عبلة فى وادى الجواء. وقد برزت وجنتاه، وغارت عيناه، واصفر لونه الأسمر، وصارت عيناه تأتلقان كأنّ شعاعهما بريق السّيف فى ضوء القمر.

وجاء إلى طلل الدار فجال بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده وبقايا نُؤيه[١١] التى كانت تحيط بخيامه، ثم وقف مبهوتًا يمسك أعلى رمحه المركوز فى الرمل مستندًا بذقنه عليه كأنما هو تمثال فى خرائب معبد مندثر، وجعل يترنَّم قائلًا:

ولقــد نــزلت فــلا تظــنِّى غـيره ... منّــى بمـنـزلـة المحـبِّ المكـرمِ
هــلَّا ســألت الخيــل يابنـة مالـك ... إن كـنـت جاهلـةً بمـا لـم تعلــمى؟
يخبــرك مــن شهــد الوقيعـة أنَّنى ... أغشـى الوغـى[١٢] وأعفُّ عنـد المغنمِ
ولقــد شفــى نفســى وأبــرأ سـقمها ... قـيـل الـفـوارس: ويـك عـنـتر أقـدمِ
ولقـد ذكرتـك والرّمـاح نواهـل ... منّـى، وبيض الهنـد[١٣] تقطـر من دمى

وقضى ساعةً وهو يتأمل ما تحت عينيه، فهناك كان خباؤها، وهنا كانت تقبل عليه باسمةً، وهناك كانت تضحك مكركرةً، وهناك كانت تقف ناظرةً إليه فى عطف وهو يصف لها آخر مغازيه.

ثم تذكر كيف أتى إليها عندما سمع بمرضها، فلم يأذن له أبوها برؤيتها، فلما أرسل إليها أمَّه لم تجد سوى البكاء، ولم تسمع منها إلا كلمات يبدو فيها الحنق والحزن. ونظر إلى بيوت الحى المنثورة فى أنحاء الوادى، فأحسَّ من نفسه دفعةً إلى أن يمضى إليها فيهدمها على من فيها، ويطعن فيها برمحه، ويضرب بسيفه حتى لا يبقى فيهم أحدًا فى الديار التى كانت هى صاحبتها وهى النازلة فيها، فما تلك البيوت بعد أن خلت من عبلة؟ وما تلك القبيلة كلها بعد أن رحلت عبلة عنها؟!

٣ شيبوب يحاول أن يخفف من آلام عنترة

وجعل يتغنى وهو متّكئ بذقنه على يديه، مستند على رمحه، لا يحسّ شيئًا مما حوله، حتى جاء أخوه شيبوب من ورائه وهو لا يحسّه وكان يقول:

خليـلىّ أمـسى حـبّ عبـلـة قاتـلـى ... وبــأسـى شـديـد والـحـسـام مـهـنَّـدُ
حـرام علـىَّ النّـوم يـا بنـة مـالـك ... ومَنْ فرشُه جمر الغضا[١٤] كيف يرقدُ؟
وألثم[١٥] أرضًـا كـنـتِ فيهـا مقيمةً ... لعـلَّ لهيبـى مـن ثـرى الأرضِ[١٦] يبردُ!
لـئن يشـمت الأعـداء يا بـنة مـالك ... فـإن ودادى مثلـما كـان يُعـهدُ

فناداه شيبوب من ورائه: ها هى ذى ركائبك يا عنترة حاضرة.

فنظر عنترة إليه فى فتور، ونزع الرمح من الرمل، وسار يجر رجليه حتى ركب فرسه، وسار أخوه يسوق الإبل المحمّلة من ورائه، يسمع إنشاده كأنه يهمس به إلى نفسه، حتى بعد عن الحى وأوغل[١٧] فى الصّحراء، وأقبل الليل فتقدَّم أخوه نحوه وسأله النزول، فقال عنترة واجمًا: لوددت أن أسير ليلى ونهارى، فإنى لا أريد أن أستقرَّ يا شيبوب.

(٧) 📖 هام: خرج لا يدرى أين يتجه.
(٨) 📖 يلم: ينزل.
(٩) 📖 أربه: حاجته.
(١٠) 📖 طلل: آثار الديار. الجمع: أطلال.
(١١) 📖 نؤيه: النُّؤى: هو الحُفرة حول الخيمة تمنع عنها السيل.
(١٢) أغشى الوغى: أدخل الحرب.
(١٣) بيض الهند: السيوف المصنوعة فى الهند.
(١٤) 📖 الغضا: شجر غليظ الجمر والنار، المفرد: الغضاة.
(١٥) 📖 ألثم: أقبّل.
(١٦) 📖 ثرى الأرض: تراب الأرض.
(١٧) 📖 أوغل فى الصحراء: دخل فيها.

KTABYEG.COM

فقال شيبوب مازحًا: ولكنّى لست مثلك يا عنترة. ولا بدَّ لى أن أذوق من الطعام بعد كلّ يوم، فنزل عنترة وانتحى مكانًا من كثيب[١٨] فرقد فوقه، وذهب شيبوب ليوقد النار ويعدّ الطعام، فلما فرغ من ذلك عاد إلى أخيه يحمل صحفة ثريد[١٩]، فأراد عنترة أن يرضيه، فأكل معه لقيمات وهو يغمغم بين حين وآخر ببعض الشعر.

واتجه شيبوب إليه بعد حين فقال: هذا الفضاء الفسيح يشملنا وحدنا، فكلُّ ما فيه من أودية وتلال وأغوار[٢٠] لنا وحدنا. ولو كان فى هذه الأودية أموال لم يمتنع علينا شىء منها، فنحن نملك هذه الأرض كلّها يا عنترة .

٤ عنترة مستمر فى آلامه ويفكر فى الرحيل إلى عبلة لاسترضائها

فقال عنترة فاترًا: ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئًا يا شيبوب. فما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة؟ ماذا أصنع لو ملئت لى هذه الأرض خيلًا وإبلًا، وفاضت لى عيونًا وأخرجت إلىّ من حصاها لؤلؤًا وياقوتًا؟ ماذا أصنع بهذا كله وقد فقدت عبلة؟!

ويل للإبل ومن يملكونها! فمسعلُ بن طرّاق الكندى يملك من الإبل ألوفًا وهو يسوقها صداقًا[٢١] إلى مالك يريد أن ينزع منّى عبلة، وفى بنى شيبان قيس بن مسعود يملك منها الألوف، وهو يهبها لعلّه يفوز بعبلة لابنه بسطام. وعمارة بن زياد يملك منها الألوف ويسوقها إلى مالك لكى يزوّجه بعبلة. كل هؤلاء يملكون الإبل فتعسًا لها وبعدًا لمن ملكها!

فقال شيبوب فى مرح:

لو كنت أنا عنترة لقصدت إلى بنى شيبان فنزعت عبلة من بين ظهرانيهم[٢٢] وخرجت بها إلى البرّيّة كما يخرج الأسد بفريسته.

فقال عنترة متحركًا فى ضجر: بل أذهب إليها لكى أذرف دمعى وأدفق لها ما بقلبى، لعلها ترضى عنى، لقد كدت يومًا من الأيام أهمّ بأن أفعل ما تذكره الآن.

فلقد كنت حريصًا على أن أفوز بعبلة. ولكنى لا أنظر اليوم إلى أن أفوز بها. لقد بلغت منى فوق ما يبلغ النساء من الرجال. فأنا لا أطمع اليوم فى أكثر من أن أستردّ رضاها.

لاحت عند ذلك سحابة من الطير تضىء بشعاع القمر ميمّمةً[٢٣] نحو الشرق، فقال عنترة وهو ينظر إليها: ليت لى جناح هذا الطير فأذهب حيث شئت، وأنتقل مع سرعة خاطرى إلى حيث تتوق نفسى.

بل ليت لى مثل جناحها فأحلّق فوق هذه الأرض لكى أرنو[٢٤] إلى عبلة من السماء قانعًا بنظرة أصيبها[٢٥] كلّ يوم منها.

وسكت لحظة ثم قال فى صوت حانق: إن كلّ الناس لا يزالون ينظرون إلىّ كما ينظرون إليك. إننى ابن زبيبة الأمة، حتى وإن نسبنى شدّاد إلى عبس . فقال شيبوب ضاحكًا: أما أنا فلست أبالى كيف ينظرون إلىّ!!

فقال عنترة فى رفق: لقد كدت أحسدك على ما أنت فيه يا شيبوب. فإنى ما زلت حيث كنت بعيدًا عن سعادتى، وكنت من قبل ألمحها أمامى، وهى لا تزال أمامى كأنها تهرب منّى كما يهرب الجبان الذى يركب مهرًا سريعًا، لم يكن الرّق هو الذى يحول بينى وبين سعادتى، ليس الرّقّ سوى لفظ يسترون به ما فى نفوسهم من الكبرياء، ليس الرّق هو الذى كان يشقينى، بل هو الوهم الذى يرضى به الضعفاء أنفسهم ويسترون بـه ضعفهم، فهم لا يجـدون ما يميزون بـه أنفسهم ولا ما يسمون به إلى المكارم، فيأبون إلا أن يهبطوا بمثلى إلى ما دونهم، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم من عنترة.

(١٨) كثيب: تل.
(١٩) 🕮 صحفة ثريد: إناء الطعام.
(٢٠) أغوار: كل منخفض من الأرض.
(٢١) صداقًا: مهرًا.
(٢٢) ظهرانيهم: المراد: وسطهم.
(٢٣) 🕮 ميمّمة: متجهة.
(٢٤) 🕮 أرنو: أنظر.
(٢٥) 🕮 أصيبها: أنالها.

KTABYEG.COM

٥ الحبّ الذليـل

فقال شيبوب: أنت تحسّ الذل لأنك تحتاج إليهم، إنّ هذا **الغلّ**(٢٦) الذى تضعه حول عنقك هو الذى يذلّك، ليس ما تحسبه من كبريائهم، إن هذا الحبّ الذى تتحرك فيه لا أسمّيه أنا إلا الرّق والذل!!! فعجبًا منك إذ تقوى على الحروب تخوضها، ولا تقوى على قيدك الذى تقيّدك به فتاة!!!

فقال عنترة: لست ألومك يا شيبوب، لأنك لا تحمل مثل نفسى، ولو كان لك قلب، لما تحرك إلا كما يتحرك قلبى. أنت تخدع نفسك حتى ترضى بما أنت فيه، فدعنى وشأنى.

فقال (شيبوب): إنما العبد من يستمدّ من الناس حرّيته.. إنى أعيش لنفسى. وإذا نظرت إلى هؤلاء الناس لم أكد أرى منهم أحدًا سواك أنت وأمى وإخوتى. فهزّ عنترة رمحه وقال: إنّه قضائى. وليكن لك ما ترى.

لست ألومك على شىء ممّا تقول، ولكنى سأذهب إليها لعلّى أنظر إلى وجهها، ولعلى أجد الدمع قد جفّ من مقلتيها، ولم أزل بهذا الرجل مالك بن قراد حتى أتملّق كبرياءه، ولن أزال بابنه الأحمق عمرو حتى **أهدهد غروره**(٢٧)، سوف أتذلّل حينًا، وسوف أبكى حينًا، ثم سوف أقتحم اللّجج والنيران حينًا، سوف أخدم بنى شيبان وأرعى لهم غنمهم وإبلهم كما كنت أرعى غنم شدّاد وإبله؛ لكى يرضوا بمقامى قريبًا منها.

فقام (شيبوب) قائلًا: أحمق وربّ الكعبة. إنهم لا يريدون إلا بعدك، ولو وجدوا فيك فرصة لزجّوا بك فى المهالك حتى لا يروا لك وجهًا، وأما أنا فإنى لن أعدل بهذه الحياة شيئًا، هى عندى خير من عبلة وكلّ قومها، أنا أعرف كيف أحيا، وكيف أنعم بطعامى وشرابى. أما أنت فلا أظنّك تحرص إلا على الخيال الذى يصوّره لك الوهم. اذهب كما شئت، والتمس ما شئت، فأنا أحبّ أن أكون معك، ولن أتخلّى عنك ولن أدع صحبتك. إنك تحبّها لأنك تطلب **علالةً**(٢٨) لحياتك. أنت تجد لذتك فيما تأمل وما ترجو وما تسعى له من آمالك؛ وأما أنا فإنى أجد لذّتى فيما أذوق بلسانى وما ألمسه بيدى، وما **أقارفه**(٢٩) فى يومى.. أنت تسعى وتتألم فى سبيل وهم باطل، وأنا أحيا وأتنعّم فيما أحسّه حقيقةً فى يدى!!!

(٢٦) 🕮 **الغلّ**: القيد.

(٢٧) 🕮 **أهدهد غروره**: أجعله يهدأ.

(٢٨) 🕮 **علالة**: ما يُتلهَّى به.

(٢٩) 🕮 **أقارفه**: أخالطه.

KTABYEG.COM

الفصل العاشر

حَيــاةُ الغُرَبَــاء

تفاصيل الأحداث

١ نَدَمُ والد (عبلة) على رَحيله عَنْ وَطنه

كان مُقَامُ «مَالك بن قُراد» وأَهْله فى بنى شَيْبان كريمًا، إذْ نزلَ جَارًا عند سَيّد القوم (قيس ابن مسعود)، فلم يَجِدْ فى جواره إلا العزَّ والمَنَعَة والمُروءةَ الكَاملة. ولكنَّه مع ذلك لَم يكُنْ سعيدًا ولا رَاضيًا؛ لأنه لم يَنْسَ أنه رَجُلٌ منْ عَبْسٍ ضَاقَ به المقام فى قَوْمه، فاضطرَّ إلى أن يُهاجرَ بأهله ويَحلَّ ضيفًا على أَصْهاره. وكان يَتَنَسَّمُ الأنباءَ عنْ عَبْس، فإذا ما أتَتْ قافلةٌ من الحجاز إلى العراق خرجَ يسألُ أهلها فى لَهفةٍ عَنْ إخوته وعن أبنائهم، وعن أَصْحابه الذين طالما شَارَكَهُم وشَاركُوه فى السَّراء والضراء، وفى النصر والهزيمة، وامتلأ صَدْرُه بشُعورٍ يشبه النَدَم على أنه تركَ وطنَه وأهْلَه، منْ أَجْل عَارضٍ عرضَ له، كان أولى به لَوْ صَبَر عليه أو فَسَح له منْ صَدْره، ولم يُطعْ فيه كبرياءَه وكبرياء وَلَده، وكثيرًا ما حَدثَته نَفْسُه بالعودة إلى أرض الشِّربة والعَلَم السَّعدىّ، فأفْضَى برأيه إلَى ولده عمرو، ولكنَّ ولده كان صَارمًا صُلْبًا؛ فلم يتزعزع عَنْ رأيه، وبَقىَ على عَزْمه الأول: أنه لن يَعُودَ إلى عبس حتى يَحُلَّ العُقْدَةَ التى بينَه وبينَ عنترةَ.

٢ رغبة (بسطام بن قيس) فى زواج عبلة

كان عَمْرو بن مالك لا يكادُ يُطيقُ أنْ يَسْمعَ ذكْر عنترةَ، فإذا ما ذَكَرَهُ أحدٌ أمامه عَفْوًا لم يَمْلكْ نَفْسَه واندفع فى سخَطه عليه لائمًا حَانقًا. وكان لا يزالُ مُصرًّا على تَسْميته العبدَ ابن زَبيبَة. وقد تَوثَّقَت الصداقَةُ بين عمرو بن مالك وبين (بَسْطَام بن قيس)، وكان شابًّا فى مثْل سنّه مُنَعَّمًا جميلًا، يقضى حياته كَسائر أبناء السادة فى صَيْدٍ أو لهو، فإذا عَزَم قومُه علَى غَزْوة سَارع إليها، وكان فى صَدْر الكَتائب يَكْسبُ المجدَ فى الحرب ليُمَهّد لنفسه السّيادَة فى شَيْبان.

وأَفْضَى بَسْطَامٌ إلى عمرو أنه يريدُ الزَّواجَ منْ أخته الجميلة عبلة، فَرَحَّب عمرو به؛ لما كانَ بَيْنهما منَ المودَّة، ووَعده أنْ يكُونَ رَسولَه إلى أبيه مالك، ووعدَه أن يَبذل ما فى وُسْعه ليَحْملَ أباهُ وأخته على الرّضاء، ودَخل عمرو على أبيه فى بَيته عَشيَّة يوم فقال له: لقد كنتُ أحبُّ أن أُفْضىَ إليك بحديثٍ يا أبى. فَمدَّ مالكٌ طرفَ ثوب كان جالسًا عليه وقال له:

تَعالَ يا ولدى فاجلسْ هنا، فإنى أُحسُّ فى صَدْرى وحْشَةً منذ الليلة.

فجلس عمرو إلى جانبه وصمَت حينًا، ثم قال: أريدُ أن أحدثكَ فى شَأن عبلة.

فالتفتَ إليه أبوه قائلًا: وهل لعبْلةَ شَأْنٌ آخرُ فى شيبانَ؟

فقال عمرو: وهل يَفْرُغُ للبنات شَأْنٌ يا أبى؟ أَليس هَمُّ الأب والأخ أنْ ينظرا فى أمرهنَّ؟

فقال مالك: لا بَعُدتَ يا عمرو، امض فى الحديث.

فقال عمرو: إلى متى تَبقَى عبلة بغير زواجٍ؟

٣ رفـض والدها هـذا الـزواج

فقال مالك وقد فاجأه هذا القول: أتريدُ أن تُزوّجها ونحن هنا ضُيوف؟ أليست هى عبلة ابنة مالك بن قراد؟ إنا هنا ضُيُوفٌ يا ولدى عند أصْهَارنا، ولا ينبغى أن يأتى الخاطبُ إلينا إلا فى ديارنا، ولقد كنتُ أفكّرُ فى هذا الأمر قبل أن تأتىَ إلىَّ، وهو الذى بَعث الوحشة إلى صَدْرى.

KTABYEG.COM

فقال عمرو: ألستَ تَرْضى بَسْطام بنَ قيس؟

فقال مَالك في شبه فَزَع: لقد أضَلَّك[١] الهَوَى يا عمرو، وأُراك لا تَهْتَدى.

ما سُؤالُك هذا فيما كنَّا نتحدثُ فيه منذ لحظة؟ إنَّ بَسْطَام بن قيس رضًا وابنُ رضًا، وهو خير مَنْ تُزفُّ إليه بنتُ سادةٍ أحرارٍ، ولكنى لا أتحدث عَنْ بسطام وكفَاءته، فنحنُ هنا ضيوف في غير قَوْمنا، وما أحْرى[٢] الناس أن يقولُوا قد أَخذَ قيسُ بنُ مسعود عبلة من أبيها، قد يقولُ العرب: إن قيسًا طلبَ عبلةَ لابنه بَسْطام، فلم يستطعْ أبوها أنْ يمنعها. وقد يقول هذا الأسود يَومًا إننى هَرَبْتُ بها حتى....

فقاطعه عمرو في حَنَق: وما لنَا وذلك الأسود؟ إنكَ يا أبت لا تَزالُ تَذْكره كأنك لا تُريدُ أن تُخلىَ[٣] قلبك منه. لقد تَركْنا له قَوْمنا ووطَنَنا، فهلا طَرحته منْ نفْسك فلا تَعُود إلى ذكْره؟

فقال مالك: كأنى بك تُريد منى أن أُغْمضَ عَيْنىَّ؛ حتى لا أرى ما هو ماثلٌ أمامى.

فقال عمرو في ضيق: إنكَ لَتُشْعرُنى الذّلة كُلَّ يوم وأنت تَلْهَجُ باسم[٤] عنترة، كأنَّ صورتَه قد جاءت وراءنا إلى أرض شَيْبان لتزعجَنا، فما فراقُنا أرضَ عبس إذا كان عنترةُ لا يزالُ معنا؟ زَوّجْ عبلةَ لبسطامٍ، فَوَحَقِّ مناةَ إنَّ عنترةَ لن يستطيعَ أن ينطقَ بَعْدُ باسمها.

فضحك مالكٌ سَاخرًا وقال: إنك لم تَعْرف عنترةَ يا ولدى كمَا عَرَفتُه. لستُ أُدافعُ عنه ولستُ أُحبُّهُ، بَل إنى أَمْقُتُه[٥] مقتًا لا تَستطيع أَنْت أن تُحسَّه. إننى أمقته، ولو قَدَرْتُ على أن أُوردَهُ المهالك لما تردَّدْتُ لحظةً في أن أوردَهُ. ولَكَمْ حاولتُ أن أردّه عن عبلة بالمكر والخَديعة[٦] والمؤامرة؛ حتى شَاع كُرْهى له وعَجْزى عنه. ولكنه يُحبُّ عبلة يا ولدى. ولن أستطيع أنا، ولن تستطيعَ أنتَ ولا أحدٌ من عبس أو شيبان أن يُكَمّم فمه عن النُّطْق بها وإنشاد الشعر فيها. وأطرقَ حزينًا صامتًا.

فتحرك عمرو في قَلق وقال في حقْدٍ: إذا كنتَ أنت يا أبى قد عَجزْتَ عنه فَدَعْ مَنْ يستطيع أن يَلْقاه ويَكْفيك شرَّه.

فرفع مالك رأسه، وقال سَاخرًا: أَذلك بسطام بن قيس؟

فقال عمرٌو مُتَحدّيًا: نعم ذلك بسطام. إنه يريدُ عبلة ولا يُحْجم[٧] عن الذَّهاب إلى أقْصَى الأرض؛ لكى يأتى إليك برأس ذلك العبد.

فضحك مالك، وقال: أَيذْهَبُ في جيشٍ من شَيْبان لغَزْو عبس؟ أهذا ما يريد بسطام؟

فقال عمرو: بل يَذْهَبُ إليه وحده، لينَازلَه ويَأْتيَكَ برأسه فَوْقَ سنان رُمحه[٨]، وسوف تكون مفْخَرَة الأبد..

فقاطعه مالك حانقًا: بل تكونُ مذَلَّةَ الأبد يا عَمْرو، سيقولُ العربُ عنى وعنكَ: إننا عَجَزْنا عن عنترة، فَبعْنا عبلة لبسطام حتى يَنتصفَ لنا، ولكن ما بالك تُحَدثنى عن بسطام وعن عنترة؟

وهذه أُخْتُك لا تزال باكية في صباحها ومَسائها، لا تَذُوقُ للحياة طَعْمًا، أهذا لأنها تَكرَهُ زواج عنترة؟!

فتحرك عمرو مرة أخرى في قلق وقال:

وماذا يَعْنيكَ منْ عبلة إذا كانت تَبْكى في صباحها ومسائها؟ إنها فتاةٌ حمقاء سخيفةٌ، قد أَوْحش قلبها مِنْ صَاحِبَاتِهَا في عَبْس.

٤ وَالدُها يُصَمّمُ على عَدَم تزويجها إلا بإرَادَتها

فقال مالك في حرارة: لقد عرفت ابنتى عبلة، وما أُحبُّ لها أن توصف بالحمق والسخْف، إنها زينة فتيات عبس، وليس في قبائل العرب فتاةٌ تعدلُها عَقْلًا، ولا أقولُ حُسْنًا. فقاطعه عمرو في حَنَقٍ:

ألم تكُنْ هى التى أطْمعَتْ عنترةَ فينا؟ أَلم تكنْ هى التى جَرأته على التَّطلع إليها؟ أليست هى تَهْواهُ وتَرْضَى أن يكون العبدُ ابنُ زبيبة زَوْجَها؟

(١) أضلك: أهلكك وضيعك.
(٢) ما أحرى: ما أجدر وما أحق!
(٣) تخلى: تُفرغ.
(٤) تلهج باسمه: تولع به وتكثر من الثناء عليه.
(٥) 📖 أمقت: أكره.
(٦) الخديعة: الوقيعة.
(٧) 📖 يحجم: يمتنع.
(٨) 📖 سنان الرمح: حَدُّه.

KTABYEG.COM

فصمتَ مالكٌ وجعل يَنْكُتُ الأرض[٩] بعصًا صَغيرةٍ فى يده. واستمرَّ عمرو يقول:

وليس أَدلَّ على حُمْقها وسُخْفها منْ أنها لا تَرْضَى ببسْطَام بن قيس زوجًا لها. فصاح مالكٌ فى دهشة: أعرضْتَ عليها زَواج بَسْطام؟

فقال عمرو: بل ذَكَرَتْه لها أُمّى فى ثَنايا حديثها، فأَعْرَضَتْ عنها، وَبَكَتْ، وقامت إلى مَخْدَعها فاعتكفتْ به.

فقال مالك فى حُزن: إنكم تُعذّبونَ الفتاةَ !! وما لَكُمْ تريدون أن تُكْرهُوها على زواج مَنْ لا ترضَى؟ لقد آليتُ على نَفْسى أنْ أجعل أمرَها لنفسها، ألا تَذْكُرُيَوم أن عرضْتُ عليها عمارة ابنَ زياد؟ ألم تَقُلْ لى إنها لا تَرى إلا ما يرى أبوها وأَخُوها، وإن كانت لا تُحبُّ الزواجَ من عمارة؟

فصاح عمرو: وإذا كانت لا تُريدُ سوى عنترة!!

فتردد مالك حينًا ثم قال: وأين عنترة اليوم منْها؟

فقال عمرو: إنك إذا كُنْتَ لا تُريد تزويجَها إلا بمَنْ تريد هىَ، فإنها لن تَرْضَى بغير عنترة.

فصمتَ مالكٌ لحظة ثم قال: إن فى العرب مَنْ يُرْضيهَا.

فقاطعه عمرو قائلًا: فإذا كانت لا تَرْضَى إلا بعنترةَ. أَتُزَوّجُها له؟

فقال مالك فى ثباتٍ: أزَوّجُها لَه.. ثم وضع وجهه بين يديه كَأنه يواريه من مَعرَّةٍ، فصاح عمرو فى حنَقٍ:

- إذًا فلن يَبْقى هذا العبدُ لكىْ يَمْزُج دماءه بدمائنا، ويَحمل نَسْلُنا أبدَ الدهر عَارَه. واندفَعَ خارجًا منَ الخيمة ذَاهبًا إلى مَنازل «قيس بن مسعود».

٥ «شيبوب» يَتَسَلَّلُ إلى خَيْمة عبلة رسولًا من عنترة

تحرك فى تلك اللَّحظة شَبَحٌ فى الظلام منْ وراء الخيمة، فتسلَّلَ إلى الخيمة التى تَليها، وكانتْ خيمة عبلة، فأتى إليها من جانبها زَاحفًا فى سُكُونٍ، وجعل يَتَسمَّعُ حينًا، ثم رفع طرف الخيمة، وأَطَلَّ برأسه فى داخلها مُترفقًا حذرًا. فلما اطمأن إلى أن ليْس بالخيمة أحد يَخْشَاه همس قائلًا:

عَبْلة، لا تُراعى[١٠] فأنا شيبوب؟

فقالت عبلة فى صيحة مكتومة: وَيْحَك يا شيبوب، أأنت هنا؟!!

وقامت إليه تهمس: متى جئتَ؟ وفيم سَعيتَ؟ وهل جئتَ وحدَك؟

فقال شيبوب: جئت الساعة وتَجَسَّسْتُ على أخيك وأبيك وهما يَسُبَّان عنترة، ثم جئتُ لأخبرك أن عنترة قريبٌ من هنا، وقد جاءَ يعتذرُإليك ويطلبُ عفوك، إنه لا يكادُ يذوقُ طعامًا ولا يَفْتأ يلهَجُ بذكْرك فى نهاره ليله. فقالت عبلة فى نَغمة حُزْن: أما كَفَاهُ طَرْدى وتَشْريدى؟ أما كَفَاه غُرْبتى وتعذيبى؟ هل أتى ليُعيدَ على أذُنى تَقْريعه وتعنيفه؟ ومع ذلك كله فقد نَسينى ولَمْ يَعُدْ يذكرنى. إنه اليوم لا يُنْشدُ الشعرَإلا فى شَكْوَى زمانه وفى ذَمِّ قومى!!

فقال شيبوب: بل هو لا يفتُرعن الإنشاد باسمك فى كُلّ صباح وكل مساء، إنه يجعلُ ذكْرك غذَاءه الذى يتغذَّى به، وسَمَرهُ الذى يُؤنسه. إنه لا يعيشُ إلا على ذلك يا عبلة. فوضعَتْ عبلةرَأْسَها بين يديها وجعلَتْ تبكى، وقالت فى تَهَانُفهَا: وأين تَركتَهُ يا شيبوب؟ قُلْ له يَعُدْ منْ حيث أتى، فإن القوم هنا أعداؤه وكلُّهم يتَمنَّى أن يراه مُعفَّرًا[١١] فى التراب.

فقال شيبوب مسرعًا: لن أستطيع ردَّه عن رؤيتك يا عبلة، لن أستطيع رده، إلا إذا استطعتُ أن أَرُدَّ السيلَ المتدفِّق، أو الصخرةَ المنحدرة من قمَّة الجبل.

(٩) 🕮 ينكت الأرض: ينبش الأرض.

(١٠) 🕮 لا تراعى: لا تخافى.

(١١) معفرًا: ميتًا، مهزومًا.

KTABYEG.COM

٦ «شيبوب» يواجه أخاها عَمْرًا ثم يهرب

وسمع عندَ ذلك صوتَ أقدامٍ فهمسَتْ عبلةُ فى خوفٍ:

أسْرعْ يا شيبوب فاخرج .

فأسرع شيبوب زاحفًا من جانب الخباء، ولكنه تَعثَّر فلم يَنْجُ حتى دخل عمرو بن مالك فلَمحه، وصاح بأخته فى غضب: منْ يكونُ هنا يا عبلة؟

فصاحت به عبلة: إنه أحدُ بنى شيبان جاء إلى خبائى. أهذا يَسُلُّ حقدك(١٢) علىَّ، ويُطَمْئنُ فؤادَك؟ ووجدَ شيبوب أنه إذا أسْرع هاربًا تركَ عبلة وحدها لغَضب ذلك الفتَى المتجَبر، فزحف راجعًا حتى دَخلَ الخباء، ووقف أمام وجه عمرو وقال له: لعلَّك تعرفُ مَنْ أنا يا عمرو بن مالك. لعلك تَصْرفُ غضَبكَ إلىَّ أنا، فأنا الذى جئْتُ إلى هنا، وتَجَسَّستُ عليك إذ كنت تَشْتُم أخى، وتَتَمنَّى له الهلاك. وأنا الذى كنت دخلت إلى خباء أختك خفْيَةً منْ تحت الأستار لأحدثها، فاصْرف غضبك إلىَّ فإنى أعزل.

فصاح به عمرو: وفيمَ جئْتَ إلى هنا أيُّها العبدُ؟ أما وَجَدْتَ فى صُحْبة أَخيك خيرًا فجئت إلينا لتعَكّرَ علينا مقامنا فى شيبان؟!

فقال شيبوب: أما وقد ذكرتَ مُقامك فى شَيْبان؛ فإنك أنت الذى سَعيتَ إلى التَّغرب هربًا منْ أن يكون لك شَرف المُقام فى قَومك، أتهربُ خوفًا من أَنْ يكون صهْرك عنترة الذى يَفخر العربُ جميعًا بأن يكون بينهم؟

فصاح عمرو: أيها العبد لَتَجدَنَّ هنا عقوبتَك. ولو كنتَ من أنداد الأحرار لأعطيتُك سَيفًا وبرزت إليك فى البراح لأعاقبك على جُرأتك، ولَكن انتظر.

ثم التفت نحو عَبْلة وصاح بها: هاتى حَبْلًا يا عبْلة حتى أشُدَّ وثاقَ هذا الْعبد!! فقهقه شيبوب وقال: لستُ فارغًا لك اليوم يا عمرو بن مالك فانتظرنى أنت حتى أعُودَ إليك يا بن الأحرار!! سوف أعودُ إليك قريبًا، فلست أُحبُّ أنْ يَطُول انتظار عنترة.

ثم انطلق خارجًا منَ الخباء(١٣)، ولم تَمْض لحظةٌ حتى كان خارج المنزل يَعْدو فوق الرّمال كالظَّليم(١٤)!!

(١٢) 📖 يسل حقدك: يخرجه من صدرك.

(١٣) الخباء: المراد: الخيمة، الجمع: الأخبية.

(١٤) الظليم: ذكر النَّعام.

KTABYEG.COM

الفصل الحادى عشر

الفارسُ النبيلُ

تفاصيل الأحداث

١ «قَيْس» يُرَبِّى ابنه «بسطامًا» على الخشونة والفروسية بعد أن كان مُدَلَّلاً مترفًا

قَضَتْ حِلَّة[١] (قيس بن مسعود) ليلتَها فى اضطراب عندما عَلِمَتْ بأن بسطام بن قيس قد خَرجَ يسعَى إلى لقاء عنترة، فقد أعلَمهُ عَمرو بنُ مالك بِقُدُوم عنترة، وَزيَّنَ له أن يَخْرُج إلى ذلك اللّقاءِ..

وكان (بسطام بنُ قيس) فارسَ شَيْبان وفتَاها. ولكنَّ لِقَاء عنترةَ لم يكنْ كلقاء الفرسان. وقد كان أبوه يَحْرِصُ على بقائه؛ ليكُون أميرَالقوم بعده، وكانت أمُّه التَّميميةُ تُحَاذِرُعليه وتَخْشَى أَنْ تُصيبَه الكوارثُ، فقد كان لها فتًى وحيدًا نشأ فى بيتها مُدَلَّلًا، حتى كره أبوه تَدْليله، وغَضِبَ عليها؛ لأنها كانت تُنشِّـئُه بين النساء والفتياتِ، لا تُعَرضه للمشـقَّة وتُشْفِق عليه منْ مخاطِر الفتيان. وَهَمَّ قيسٌ يومًا أن يُوقِع بها[٢] وبه خوْف أنْ يَشِبَّ الفتى طَريًّا ضعيفًا وهو أكبر وَلَدِه.

فلم يَحْمِه مِنْ غَضبِ أبيه إلا أنْ بعثتْ به أمُّه إلى إخوتها فى تميم، فأخذ يَخْرجُ مع فتيانهم إلى الصَّيد والغزْو، حتى شَبَّ فارسًـا بَارعًا لا يَرْهَبُ نِزالاً ولا يتردَّدُ فى صِدَام. فلما عاد إلى قومه شـيبان لم يَلْبث أنْ ظهر فيهم وتكشفت لهم فُروسِيته، وصاروا يَهْتِفُون باسمه كلما ألمَّتْ بهم نازلةٌ[٣].

٢ الخوفُ عَلى «بسطام» لَوْ بارزَ عنترة الفارس المخيف

ولكنَّ الجزعَ داخَل أباه وأمه، وعَمّ كلَّ قَوْمه عندما ذاع بينهم أنه قد خرج إلى عنترة، عازمًا ألا يعودَ حتى يَقْهر مُنافِسهُ الذى جاء يَنْتزعُ منه (عبلة).

فخرج قيس بن مسعود فى أهله لاحِقًا بابنه، لعله يُدْرِكُه قبل أنْ يصطدم بذلك الفارِس المُخِيف الذى عَرفوا جميعًا أن الاصطدامَ به موت غيرمردود. ولم تُطقْ أمُّه البقاء خَلْفهم فسارَتْ معهم مُتَلهِّفَة تبكى كأنها قد ثَكلتْه[٤].

وطلعَ الصباحُ عليهم وهم يُسْرعون فى الطريق يَتَعقَّبُون آثارَبسطام، لعلهم يُدركونه قبل النِّزال.

وأراد عمرو بن مالك أنْ يخرجَ معهم، فردَّه قيسٌ فى شَىءٍ من العُنْف؛ لأنه هو الذى زيَّن لابنه الخروجَ للقاءِ غريمه المخيف. وقد عَزمَ قيسٌ فى نفسه إذا عاد إلى منازله أن يَرُدَّ جواره عَنْ مالكٍ وأهله حتى يَخْرُجُوا عن قومه تَشَاؤُمًا بِمُقَامهم بين ظَهْرانيهم، وحَمِيتْ شمسُ النهار، وكانوا لا يزالُون يضربون[٥] فى الصحراء على غَيْرِ هُدًى فقد كان سيرهم بَطيئًا وَهُم يَتَتَبَّعُون آثار فرس بسطام فوق الأرض الصَّخْرية الصّلبة. وتَشَتَّتَ العَبِيدُ فى شِعاب الطريق لعَلَّهُم يعرفون موضع سَيِّدهم فكانوا يَعُودُون واحدًا بَعْد واحدٍ بعد أَنْ يُوغِلوا فى جَوانب الفَلاة[٦] فَلا يَهْتَدُون إلى يقين.

وكادَت الشمسُ تَتَكبَّد السماءَ[٧] عندما عادَ أحدُ العبيد مُسْرِعًا يُلوِّحُ بردائه فى الهواء. فأسرع رَكْبُ قيس إليه، فصاحَ العبدُ مِنْ بعيد: أَبْشِروا بِسَلامَةِ بسْطام.

فصاح قيسُ بن مسعود: أَوَ قَتَلَ عنترةَ؟ فصاح العبد: بل لَم يَقْتُلْه عنترةُ.

ولما وصل العبدُ إليهم حَدَّثهم عن سيده. فقال إنه قد رآه مَشْدُودًا فى وثاقه عند عنترة، ولكنه كان سَليمًا لم يُصبْهُ شىءٌ فى النزال. ثم قص عليهم قصته.

(١) الحِلّة: المراد: الحىّ.
(٢) يوقع بها: المراد: يعاقبها.
(٣) 📖 ألمت بهم نازلة: أصابهم مكروه، والنازلة: المصيبة.
(٤) 📖 ثكلته: فقدته.
(٥) يضربون: يسيرون.
(٦) الفلاة: الصحراء.
(٧) 📖 تتكبد السماء: تتوسطها.

KTABYEG.COM

٣ قِصَّة المبارَزَة بَيْنَ البطلين

ذهبَ بسطام إلى عنترة فى أول الصباح، فنادَاه ودعاه إلى قتاله، وحاول عنترةُ أن يَدْفعه عنه قائلًا إنه لم يَأْتِ إلى شيبان مُغِيرًا ولا عَدوًّا، ولكن الفتَى أصَرَّ فى عِناد، وأقبل عليه شاهرًا رُمحه.

فلم يملك عنترة إلا أن يَبْرُزَ له، ولكنّه طَاوله واقْتَصر على الدفاع عن نفسه حتى أصابه منه جُرْحٌ فى ذراعه فصاح به: أما كَفاكَ أنْ جَرحتَ عنترة؟!! فصاح بسطام مُباهيًا: بل جئتُ أطلبُ رأْسَك أيها العبدُ؛ لأعُودَ به على سِنَان رُمحى.

فملكَ عنترة غَضَبه، ومَضَى فى قتاله مُدَافِعًا مُطاوِلًا، فما كانَ يجِبُ أنْ يقتله وعبلة مقيمةٌ فى شيبان، وما كان يَجِبُ أنْ يَعُود أدْراجَه بغير أن يُلِمَّ[٨] بأرض شيبان؛ ليرى عبلة فيها، ويطلب عَفْوها ويستعيد رِضَاها، فما زال بالفتى حتى استطاعَ أنْ يدفَعه بِزُجِّ رُمْحِه[٩] دَفْعَةً أطاحتْه عَنْ فَرسه، ووقف فَوْقَ رأسه بِسَيفه مُجَرَّدًا.

فنظر بسطام نحوه ساكنًا يتوقَّع منه طَعْنة تنفذُ فى صَدْره، أو ضَرْبةً نحو رأسه، ولكن عنترة قال له:

قُمْ أيها الفتى واستأنِف قِتالَك إذا شِئْتَ فإنى لا أُجْهِزُ على صَريع!

فقام الفتى يَجْمَعُ نفَسه وهو حَانِق والخَجَلُ يزيده حِرْصًا على النزال. وقال له فى غَضبٍ: وَيْلَك أيها العبد! فقال عنترة: وما الذى يَحْملك على قتالى أيها الفتى؟ إنك تُحَرِّضُنى على الغَضب، وأنا أكره أنْ أقتلك. فقال بسطام: أَغرَّكَ أنْ وجدتَ مِنِّى غِرَّة[١٠] فَتُريدُ بها أنْ تُذِلَّنى، وتطمع أن يتحدَّثَ العربُ أنك عَفَوتَ عنى؟ فقال عنترة: بل قُمْ إلى فرسك فاستأنِفْ قتالى.

كان جُرحُ عنترةَ يَشْخَبُ[١١] دمًا، فَشَقَّ شَمْلته[١٢] وربط بها الجرح ثم ركب واستأنف القتال، ولكنه عاد يدافع الفتى ويُطاوله، حتى وَجَد منه فُرْصةً أخرى، فدفعه بزج رُمحه فطرحَه[١٣] عن فرسه حتى تَدَأْدأ[١٤] على الرمل صَريعًا[١٥]، ووقف عنترةُ مرةً أخرى عند رأسه والسيفُ فى يمينه قائلا: أَيَسُرُّكَ أن أَحزَّ رأسَك حتى لا أباهى بإذْلالك؟!!

فوقف الفتى ونظر إليه حينًا فى صمت ثم قال: ألا تُخبرنى ما الذى يَدْعوك إلى مُدافعتى فى القتال ومُطَاولتى؟ لقد عرفتُ أنك لا تُريد قَتْلِى فكان ذلك سبب هزيمتى.. ولو رأيتُك تَحْرِصُ على أنْ تَضع رُمْحك فى مقاتِلى، لاسْتبسلتُ فى قِتالك وانْتصَفْتُ منك. إنك أيها الرجلُ قد خدعتنى عن نفسى.

٤ عنترة لم يَأتِ مُقَاتِلًا وإنما ليَسْتَرْضِىَ ابنةَ عمه (عبلة)

فقال عنترة فى هدوء: لم أخْدعْك؛ لأننى لَمْ أُحِبّ قَتْلَك.

فقال بسطام: وكيف وقد خَرجْتُ لا أريدُ إلا قَتْلَك!!

فقال عنترة: إنما أتيتُ أَقْطع الصحراء إلى مَنازل أبيك يا بسطام، لا أَرْجُو إلا أنْ أكونَ صديقًا. جئتُ لأرى ابنةَ عَمِّى وأطلب عَفْوها وأتذَلّل لها.

فقال بسطام: وما لَجَاجَتُك فى الزواج مِمَّنْ لا يَرْضَوْنك صِهْرًا؟ أأنت تُحِبُّها، أم تريد أن تَشرفَ بِزَواج ابنة مالك بن قراد؟

فقال عنترة فى هُدوء: إنك أيها الفتى تَنْطِقُ بغير لِسانك، ولست أُحِبُّ أن أطيلَ معك الحديث، فهل تُريدُ أن تستأنف قتالى؟

فقال بسطام مُنْكَسِرًا: لا أريدُ أن يَسْخَر الناس منى. أتعفو عنى مرتين ثم أُقاتِلك!

(٨) **يلم**: ينزل.
(٩) **بزج رمحه**: الزج: حديدة أسفل الرمح.
(١٠) 📖 **غِرة**: غفلة، **الجمع**: غِرر.
(١١) 📖 **يشخب**: ينفجر، **المراد**: دم كثير.
(١٢) **شملتَه**: كساء يغطى به الرأس-رداءَه.
(١٣) **طرحه**: ألقاه.
(١٤) 📖 **تدأدأ**: تدحرج.
(١٥) **صريعًا**: طريحًا على الأرض.

KTABYEG.COM

٥ عنترة يَعْفُو عن أَسِيرِه بعْد أَنْ تمكَّن مِنْ قَتْلِه مرتين

فنظر عنترة إلى أخيه شيبوب وقال له: أَوثِقْ[١٦] يا شيبوب أسيرى.

ثم مضى عنه وشيبوب يشدُّ يديه وقدميه بالحبال.

ولما أتم العبدُ تلك القصة التى سَمعها من شيبوب، قال له قيسُ بن مسعود مُتَجهِّمًا[١٧]. سِرْ أمامنا حَتَّى نصلَ إلى عنترة.

وما هِى إلا ساعة قَصيرة حتى بلغَ الركبُ خَيْمة عنترة. وكان شيبوب عند بابها جَالسًا، فَهَبَّ للقاء القوم فنظر إليه قيس قائلًا: أأنت عنترة؟

فضحك شيبوب وقال: بل عَنترةُ أخى، أأنت قيس بن مسعود؟

فقال قيس عابسًا: أنا قيسٌ وقد جئت لأرى ولدى.

وكان عنترة قد سمع الحديث، فخَرج إلى القوم، ونظر إلى الشيخ قائلًا: مَرْحبًا بشيخ شيبان.

وانفَرجت أسارير قيس عندما وقعت عَيْنه على عنترة، وأدخله عنترة إلى خيمة ابنه، وقال له: هذا أسيرى أيها السيد فَحُلَّه إن شِئْتَ بيديك، ما كنت أريدُ قتاله فَسَلْه عَنْه وعنى... ثم خرج وتركه لِكَى يَسْمَع مِنْ ولده وصْفَ ذلك القتال، وخرج قيس من الخيمة بعد حين وبسطام يَسيرُ وراءه، فأقبلت أمه عليه صَائِحة: ولَدى !!! ثم احتَضَنَتْه وقبَّلتْه بين عَينيه.

٦ قيس يُكرِّمُ (عنترة) لِرُجُولَته ومُرُوءَته

وذهب قَيسٌ نحو عنترة فمدَّ إليه يَدَه قائلًا: أتحبُّ أن تكون ضَيفِى؟ فصافحه عنترة قائلًا: لقد جئت إليك يا سيد شيبان لائذًا. وركب الجَمْعُ عائدًا إلى منازل قَيْسٍ، وكانت الشمس تميل إلى الغروب عندما نزل قيسٌ مع عنترة فى بيته الفسيح، وأمر بأن تُعَدَّ وليمة لِلضَّيف الكريم.

(١٦) 📖 أوثق: قيِّد.

(١٧) 📖 متجهمًا: غاضبًا.

KTABYEG.COM

تفاصيل الأحداث

١ عبلة تختار عنترة زوجًا لها

أقام عنترة فى بنى شيبان مُكَرَّمًا، وكان (قيسُ بنُ مسعود) يَنْصُره ويُقيم حُجَّته(١) على مالك بن قراد. ولم يَستطعْ عمرو أنْ يحْجُبه عن أخته عبلة بعدَ أنْ خابَ سَعْيُه فى أن يجعلَ بسطام بن قيس حَائِلًا بينه وبينها.

ولم يستطعْ مالكٌ أن يَرُدَّ عنترةَ عن خِطْبة ابنته بعد أنْ مَلَّكَها أَمْرَها، فاختارَت ابن عَمِّها، ولكن (عمرو بن مالك) كان لا يَفْتأ(٢) غاضبًا حَانِقًا، فأبَى إلا أنْ يطلب أبوه مِنْ عنترة مَهْرًا غاليًا. واجتمعَ عنترة بعمه مالك وابنه عمرو فى بيْت قيس يتحدَّثُون فى زواج عبلة.

٢ حوار حول مهر عبلة

فقال عمرو لأبيه: إنك هنا فى شيبانَ غريبٌ، وسوف يتحدثُ العربُ عنك أنك خَضَعْتَ لعنترة عَجْزًا وذلًّا. فقال عنترة: كنتُ أحِبُّ لو قلتُ لَكَ يابنَ عمِّى.

فصاح مالك: قُلْها، ولا تَخْشَ يا عنترة، فأنت ابن شداد. فقال عمرو: وما يَمْنعُك مِنْ ذَلك وقد أُبيحَ لك كل ما كانَ عليك حَرامًا؟ فقال عنترة:

– لقد كنتُ يومًا أَغْضَبُ كلما سَمِعْتُك تقولُ مثل هذا، ولكنِّى يا عمرو لا أُحِبُّ اليوم أن أغْضبك، وَدِدْتُ لو رَضيتَ بأنْ أُناديَك «يابْن عَمِّى» لكى أَستلَّ منك هذا الحِقْدَ الذى يملأُ قلبكَ، إن قلبى لا يَحْمِلُ لك إلا ما يَحْملُ لآل قراد. فأدار الفَتى وَجْهَهُ فى غَيظ وقال: وَا ذُلَّ (آل قراد)! فصاح به أبوه: أمَا إنك مُنْذ اليوم تَجْبَهُنى(٣) فِى مَجْلِسى.

ثم اتجه إلى عنترة قائلًا: لا عليك يا عَنْترة مِن هذا، فإنه ما زَال يُجرِّعُنى مِنْ حُمقه ما يُجَرِّعنِى!!

٣ مَهرُ عَبلة أغلى المهور: ألْفٌ من النوق العَصَافير

فقال عنترة: بل أُحبُّ أيها العَمُّ أنْ يتَشدَّد عمرو فى خطَابى، إنه يَزْعمُ أن العربَ سوف تتحدث بأنك قد رَضيت بى مُكْرَهًا. وهو يزعم أن عنترة يَعْجزُ عَنْ أن يُغلى لك المهر كما أغْلاه لك السادة وأنت فى عَبْس. إنه قد صدَقَ. ولن يَرْضى إلا أن يَكُون مَهْرُ عبلة أغْلى المهور. ثم اتجه إلى عمرو وقال فى هدوء:

– قُلْ واحْتكِمْ يا عمرو، فإنى عند ما تُريدُ. فقال قيس بن مسعود:

لقد أنْصَفَك عنترة يا عَمْرو بن مالك. فنظر عمرو إلى الشيخ وقال فى تَحَدٍّ: لقد بذل عِمارةُ ألْفًا من النُّوق العصَافير(٤) مَهْرًا لعبلة. فصاح الشيخ فى دهشة: وهل يَملكُ عمارة النُّوق العَصافير؟ فقال عمرو: لقد رَضِى بأنْ يَهَبَ كُلَّ أَمْوالِه ليشتريَها..

(١) يُقيم حُجَّته: **المراد:** يقف فى صَفّه وينصره.
(٢) لا يفتأ: لا يزال.
(٣) تَجْبَهنى: تجبه: تقابل شخصًا بما يكره.
(٤) النوق العصافير: إبل بَيْضَاء، خَفيفَةٌ، طَيِّبةُ الألبان واللحم، حُلْوة المنظر.

KTABYEG.COM

فقال قيس:

أَيبيعُها الملك النُّعمان؟ ليس فى العرب مَنْ يَمْلِكُ منها أَلْفَ ناقة إلا الملكُ النُّعمان، وقد كَذَبَ من ادعى أنه يستطيعُ أن يَمْهَر فتاةً بِأَلفٍ مِنْها!!!

فقال عنترة: أما وقد نطَق عَمْرو بهذا فَلَن أَرْضَى بِغَيره مَهْرًا، سوف أمْهَرُ عبلة ألفًا مِنَ النُّوقِ العصافير. فالتفَت إليه الشيخُ قيس بن مسعود فى دَهْشةٍ وقال:

إنك تطلبُ يا عنترةُ المحَالَ. وكان مَالِكٌ مُطْرقًا فى أثناء هذا الحديث فاتجه إليه قيسٌ وقال له:

كأنى بابنك يَحْتكم بما لا يطيقُ. فقال مالك: ولكن عنترة قَبِلَها، ولن أَرْضَى يا أبا بسطام أن تَتَحدَّث القبائلُ بِعَجْزى.

٤ عنترةُ يقبلُ التّحدى ويوافقُ على هذا المهرِ

فَقَام عنترة إلى قيس فمدَّ له يده قَائلًا: لكَ شكرى أيها الشيخ على فَضْلِك وإكرامك، ولن أعاودَ عَمِّى فى حكمه، ولن أعُود إلى طَلَب عبلة إلا إذا كان ما يطلب من المهر فى يدى، ولَم يَرْضَ عنترة أن يَبْقَى فى شيبان بعد ذلك، فانطلق من ليلته مع أخيه يقْصدان أرضَ العراق؛ ليأتى بالنُّوق العصافير، ولكنه قبل أن يَفْصِل من(٥) منازل شيبان عَرَّج على(٦) بيت مالك لِيُودِّعَ عبلة.

٥ وداعٌ بين عنترةَ وعبلةَ

ولما أراد السير فى رحْلته قالت له عبلةُ هَامِسةً: سوف أنتظرُك حتى تعودَ وإنْ طَالَتْ غَيبتُك.. فقال لها عنترةُ: وسوف أحفظُ كلمتك هذه فى سُوَيْداء قلبى، فتكون المخاطرُ أشْهَى الأمور إلى نَفْسى.. فنظرتْ إليه بَعينيْن دامعتَيْن، ومدَّتْ إليه بصُرَّة صغيرة فأخذها عنترةُ فى لهفةٍ فإذا هى تميمة كانت مُنذ الصِّبا فى قِلادتها.. فوضَعها عنترةُ عند شَفَتَيْه ثم قالَ: لن يُصيبَنى شرٌّ ما دامَتْ هذه مَعى. وانطلق إلى راحلته فركبَها، وكان يَلتفتُ بين حين وآخر إلى ورائه ناظرًا إليها وهى واقفة عند باب الخِباء حتى غَابتْ عنه المنازِلُ، فوضع التَّميمَةَ على شفتيه مرة أخرى، ثم شَدَّها على ذراعه اليُمنَى، وقال لشيبوب: انطلق يابن أُمِّى، فَوَحَقِّ مناة لن يُصيبنى شرٌّ ما دامت هذه التميمة فوق يمينى.

(٥) 📖 يفصل من: يبتعد عن.

(٦) 📖 عَرَّج على: مال إلى.

KTABYEG.COM

الفصل الثالث عشر

رحلة المخاطر

تفاصيل الأحداث

١ صِفَاتُ النُّوق العصافير وأماكِنها

خرجَ عنترةُ إلَى العِرَاقِ يطلبُ المهرَ الذى طَلَبه أبو عَبْلة مِنَ النُّوقِ العصافيرِ التى كانتْ عندَ الملكِ النُّعمانِ. ولم تكُنْ فى قبائِل العَربِ قبيلةٌ تملِكُها، فقد كانَتْ هذه النوقُ بَيْضَاءَ مِثْل وُعُولِ(١) الجبالِ، خَفيفَةً كأنها الغِزْلانُ، طَيِّبةَ الألبانِ كالبقرِ، حُلْوةَ المَنظرِ كالمَها(٢)، طَيِّبَةَ اللَّحْمِ كأنَّها الحُمْلانُ.

٢ صورةُ عبلةَ لا تفارقُ عنترةَ وهو فى طريقِهِ للحصولِ على النوقِ العصافيرِ

وسارَ عنترةُ يضربُ فى الصَّحارى نَحْوَ العراقِ، وصُورَةُ عبلةَ ماثِلَةٌ أمامَ عَيْنَيْهِ عند كُلِّ ثَنِيَّةٍ(٣) وعند كُلِّ مرقَب؛ وما كانَ أَحبَّ إليه من تِلك المَخَاطَرةِ الجريئة التى اعْتَزم أنْ يُخاطِرَ بها. كان كُلَّما فكر فى المَخَاطِرِ التى يتعرَّضُ لها فى سَبيلِ الحُصولِ على مَهْرِ عبلة أَحسَّ سعادَةً كبرَى؛ لأنه كانَ يَشْعُرأنه يقتحِمُ مَجْدًا جَديدًا يَسْمُو به إلى الحَبيبة التى كان لا يَرى فى الحياة شيئًا يَستَحِقُّ أنْ يحرِصَ عليه إلا حُبَّها. وكان فى أثناء سَيْره فى الصَّحارى الجَاهِمة(٤) يُردِّدُ كلماتِ عبلة التى قالَتْها وهى تودِّعه أمام بَيْتِ أبيها فى بنى شيبان؛ إذ قالت له: «سَوْفَ أنتظِرُكَ حتى تعود وإن طَالَتْ غَيْبَتُكَ» وكان بين آنٍ وآنٍ يَلْمِسُ بكفه اليُسْرَى مَوْضعَ التَّمِيمَةِ التى شَدَّها على ذراعِه فيشعرُكأن رُوحًا يَسْرِى فيه، فَيهزُّه ويملؤه قوةً.

وكان يُعيدُ كلمَاتِها التى سَمعها منها، وهى لا تَزالُ مَسْطُورَةً على قَلْبه، يَدَّخرها كأثْمن الكُنوز، كما يَدَّخِرُ المقطوعُ فى الصَّحراءِ بَقيةً مِنَ الماءِ وَجَدها فى الأحْواضِ البرَّاقة الملسَاء فى بُطون الجبالِ ليطفئ بها حَرُورَ الهَجير. وكان يتَمَثَّل صُورَتها ونظراتها العَاطِفَة نَحْوه وهو يثِبُ على فَرسه الأبْجر(٥)، فكأنه سَائحٌ ضَلَّ السَّبيل فى مَهْمَهٍ(٦) قفرٍ فى ليلةٍ ظَلْماء فطلَعَ عليه القمَرُ يَهْدِى سبيلَه. كانت صُورَةُ بَسمَاتِها ونَظَراتِها تتردَّدُ فى قلبه كأنَّها الأغانِى تَحْدُو له سَيْرَه فى الطريق الوَعْر، وتُقَصِّرُ عليه مسافَة السَّفَرِ الطويلِ. كان يُقوِّى بها نفسَه إذا جَهدَه الحَرُّ، ويُغَذِّى بها رُوحَه إذا أَمضَّه(٧) الجوع، ويَجْعَلُها سحره إذا شَرب الخمرَ، وحَدِيثه إذا جَلَس إليه أَخوه وصَاحِبُه شَيْبوب.

٣ قتالٌ مَرِيرٌ وشجاعةٌ نادرة بين فَارِسٍ وَحيد وجَيْشٍ جَرّار

ولكنه ذهبَ إلى العراق يَطلب مطلبًا عسيرًا؛ إذ أقدم على مَراعِى النعمانِ وأرادَ أَنْ يَسْتَاق(٨) منها ما شاءَ من الإبلِ العَصَافِير. فما هُو إلا أنْ أحَسَّ الرُّعيانُ به حتى أَرْسَلوا النُّذُرإلى الملك العظيم فى الْحِيرَة.

واسْتاق عنترةُ الإبل مُسْرعًا نحْو الصحراء، ولكنَّ الملك أَدْرَكَهُ فى كتيبةٍ من الفرسانِوأحاطُوا به وبالنُّوق التى اسْتاقَها، وكانَتْ معركة هائلة بين فارس مُسْتَيْئس وَجَيْش لَجِبٍ(٩) مِنَ الشجعان، فلم يستطعْ إلا أن يُقاتِلَ ما بَقىَ السيف فى يده،

(١) وعول: جمع: وعل وهو تيس الجبل.
(٢) 📖 المها: البقر الوحشى.
(٣) ثنية: منحنى.
(٤) الجاهمة: المراد: القفرة الموحشة.
(٥) الأبجر: ضخم البطن.
(٦) 📖 مهمه: صحراء، الجمع: مَهَامِه.
(٧) 📖 أمضَّه: آلمَه.
(٨) 📖 يستاق: يسوق.
(٩) 📖 لجب: كبير لكثرة عدده وسلاحه.

KTABYEG.COM

وما اسْتقَامَ الرمح فى قبضته، ولكنَّ الرمحَ انقَصَفَ والسَّيفَ تَحطَّم فوق الدُّروع السَّابغة، **وأثْخَنتْه**(١٠) الجِرَاح فَخرَّ صَريعًا، وحُمِلَ إلى (الحِيرَة) بين الموت والحياة.

ورآهُ شيبوبٌ يُقاتِلُ وَسَطَ الحَلْقة المَائِجة المخيفَة فلم يَقْدِرْ على أن يَنْصُره، وعجز عن أنْ يَخلُص إليه، إذ كان الموتُ يَحُولُ بينهما، ورأى السيوفَ تَلْمَعُ والرماح تتعانَقُ فى مَعْركَةٍ مُرَوِّعة، فلم يَجِدْ خيرًا له مِنْ أنْ يَندَسَّ بين الصخور يَرْقُب القتال مِنْ بَعيدٍ، ثم رأى عنترة يخرُّ عن جواده صريعًا، فزحف مُتواريًا بين الحجارة حتى بَعُدَ عَنْ ميدان المعركة، ثم جَعل التِّلال بينه وبين مجالِ الموت وأطلق سَاقيه للرِّياح عائدًا إلى الحجاز!!

٤ عنترة فى سِجْن (النعمان) يُعَانِى جِراح جسْمِه وجِرَاح قلبِه

أُلقى عنترةُ فى سِجْنِ النعمانِ فأقام فيه ليالى ما كان أَطْولها، فكانَ يَتَوجَّعُ مِنْ جراح جِسْمِه، وجِرَاحُ قلبه أَشَدُّ ألمًا، وكان أَشَدَّ ما أصابه أنه خَابَ فى أنْ يَحوزَ مَهر عبلة، وأنه قد حِيلَ إلى الأَبد بينَه وبينها، وكانَ شُعاعٌ ضئيلٌ من النور يَدْخُلُ إليه فى سِجنه مُترددًا مِنْ **فُرجَاتٍ**(١١) ضيِّقَة بين قُضبان الحديد، فكان صَدْرُه يَضِيقُ، وَيَهُمُّ بأن يُحَطِّمَ رأسَه فى الجِدار المُصْمَت الرَّطب الذى يَملأُ قلبَه يَأسًا. وكان ينظُر إلى النُّجوم إذا طلعَتْ فيناجِيهَا ويرى صُورَةَ عبلة فى نُورِها، ويستعيدُ نظراتِها وبَسَماتِها فى لألائها، ويسمعُ فى نجْواهَا أصْدَاء صَوْتِ عبلة العذب، ويرسِلُ على شعاعها تحيَّات بائسٍ لعلها تَصِلُ إليها، ولكنه كان كُلَّما رأى تَميمَة عبلة فوق ذراعه عاد الأمل إليه فمَلأ قلبه قُوةً.

ومَضَتْ عليه تلك الأيامُ الطِّوالُ ثم أرسلَ إليه النعمانُ يطلبُه **للمثُولِ**(١٢) بين يَدَيْه، بعد أن التَأَمَتْ جُروحه، واستطاع أن يسير على قَدَمَيْه. وكان النعمان شَديد الشَّوْقِ إلى رُؤْية ذلك الرجل الذى جَاء إليه وَحْدَه غَازِيًا، وحمله النَّحْس، أوْ دَفَعه الغُرورُ إلى أن يَطلبَ المُحال، وَيَجْرؤ على اسْتِباحَة حِمَاه، فقد كانت تلك أولَ مَرَّةٍ أقْدَم رجلٌ من العرب على غَارةٍ مثلها وهو وحده، ويعلَم أنه يَطلبُ مَطلبًا **وَعْرًا**(١٣).

٥ النعمان يحاكم عنترة ويهدده

وأُدْخِل عليه عنترةُ مُقَيَّدًا فى سلاسِله، وكان شيُوخُ تَغْلب وبَكْر يَجْلسون حَول **الإيوان**(*)، والملك جَالسٌ فوق عَرشِهِ. وارتفعَت العُيونُ نحو عنترة وهو دَاخِلٌ يَحْجِلُ فى القيود، ولَوْنُه **حَائِلٌ**(١٤) مِنْ أثر السَّجن والهُمُوم، وكان الغضبُ باديًا على وَجه القوم، والملكُ يُحاولُ أن يُمْسِك نَفسه حتى يَسْمَع قول الأسير قبل أن يُوقِع به العِقَاب، فتأمَّلهُ ساعةً قصيرةً وهو صَامِتٌ ثم قال له: مَنْ أنتَ أيها البائس؟ فقال عنترة هادئًا: أَنا أَسِيرُك وتَرانِى أمامَ عَيْنيك. فَسرتْ هَمْهَمةٌ فى الجلوس، وقال الملك فى غَضب مَكْبُوح: أَسألكَ عن نَفْسِك أيها الرجل، أسألك عَن قَوْمك إن كان لك قَوْمٌ، وما أَحْسَبُك إلا عَبْدًا **آبِقًا**(١٥). فقال عنترةُ رافعًا رأسه: إنما العبدُ غَيْرى!! فقال الملكُ متعجبًا: أما تعرِفُ ما فَعلْتَ؟!

فقال عنترة: وهل ترى رَجُلًا يتخَبَّط فى الجنون؟!

فقال الملك: إنك امرؤ بين الجُنون والحمَاقة.

فقال عنترة: أتسمعُ مِنِّى هَذَرًا؟! جِئْتُ إلى حِمَى النُّعمان لأسْتَاق ألفًا مِنْ نُوقه العصافير.

فقال الملك حَانِقًا: بل أرَى أعجبَ مِنَ الحُمْق والجنون. إنك رَجُلٌ واحد تَأتى مِنْ أقْصَى الأرض لِكىْ تَسُوقَ إبلى، أكنت تَحْسب أنك تَنْجو سالمًا؟! أكنت تحسبُ أَنْ لن يَرُدَّ كيدَك أحدٌ؟! لأقْطَعَنَّ أعضاءك، ولأقْذِفَنَّ بك إلى حيثُ ينبغى لمثلك أن يُلقَى!!

(١٠) أثْخنته: أضعفته.
(١١) فرجات: فتحات.
(١٢) المثول: الوقوف.
(١٣) وَعْرًا: صعبًا.
(*) الإيوان: مجلس العرش.
(١٤) حائل: متغير.
(١٥) آبق: خارج عن الطاعة.

KTABYEG.COM

٦ ثِقَةُ عنترة بِنَفْسِه وسخرية النعمان منه

فقال عنترةُ مُبادرًا: كفْكِف أيها الملك غَضبكَ، فلستَ تَأْمَنُ مِثْلِى أنْ يَرُدَّ عليك قَوْلًا بمثله، كيف أخْشَى وَعيدكَ وأنا فى يَدِك ؟! بل كيف تُهدد رجلًا تراه يَرْسُف فى الأغْلال[١٦] بين يديك ؟! إنه ليحقُّ لى أن أَعْجَب منكَ أيها الملك إذْ ترانى فى أَيْدِى حُراسِك ثم تُهدِّدُنى، ولو شِئتُ أنْ أرد عليك قولًا بمثله لكانَ مجال القولِ متَّسعًا، فما كان يَنْبغى لمثلك أن تَأْتِى بى إلى مَجْلِسك، وتَجْمَعَ هؤلاء الشيوخ حَوْلكَ، لكى تهددنى بتقطيع أَوْصَالِى والمُثلةِ[١٧] بِجسمى، فهل يَمْنَعُنى مانع أن أركب معَك أوعر الوعْر فى الخِطَاب، وأنا يائسٌ من الحياة ؟! فاربدَّ وَجْهُ الملك[١٨] وقال: لِص جَرِىء!! فقال عنترة مندفعًا: بل مُغيرٌ أتى يَطْلب عِنْدكَ الغَنيمَة.

فقال النعمان: أَلك ثَأْر عندى ؟

فقال عنترة: بل جئْتُ إليك كما قُلتُ أطلب نُوقَك العصافير كما يَطْلُبُ الأسَدُ صَيْدًا. فقال الملك سَاخرًا: إنه لَزَهْوٌ أجْوفُ، قل إنك جئت كما يجىء لِصٌّ أحمقُ. فصاح عنترة: بل أنا أحد هؤلاء العرب الذين يَطْلُب بعضُهم إبل بعض فى الغزواتِ، فما أنا أيها الملكُ، وما أنت، وما هَؤلاء الشُّيوخُ جميعًا سِوى عَرَب يتردَّدون بين الأودية فى نَجْدٍ وتِهَامَة وهِضَاب الدَّهناء واليَمامة، وكُلُّهُم يَسْلُب ويَغْزُو، لستُ باللص أيها الملكُ إذا لم تَكُنْ أنتَ لِصًّا، وإذا لم يكن هؤلاء جميعًا لُصوصًا، أليس هذا رَدَّ قولِكَ ؟!! فَسَرتْ غَمغَمةٌ عَالية مِنْ حَوْلِ الإيوان وقال الملك فى غَضَبٍ:

أَقْصِرْ عن البَذَاءَة لا أُمَّ لَكَ، وحَدِّثْنِى إذا لَم تَكُنْ لِصًّا فما شَأنُك ؟ أبَعَثَك أحدٌ علىَّ عينًا ؟ أم استأجرك بَعْضُ أعدائى ليتحدَّثَ الناسُ بجُرْأتِكَ عَلىَّ فَيغُضَّ ذلك مِنْ قَدْرى ؟ قُلْ واصْدُقْنِى، ولك مِنى حَياتُك إذا صَدَقتنى. فقال عنترة سَاخِرًا: لم أُقْدِمْ على حِمَاك وأنا حَرِيصٌ على حياتى، إنما جِئْتُ إليك لأستاق إبلك لِنَفْسى، وما كنتُ لأتجرَّأ عليك مِنْ أَجْلِ أحدٍ يُسَخِّرنى، وما كانَ مِثلى ليدِبَّ إليك جَاسُوسًا.

فقال النعمان ساخرًا: مِثْلُك! ومَنْ تَكُون إذا لم تَكُنْ أحدَ هؤلاء الصَّعاليك الذين لفظتهُم القبائل لِتَبْرَأ من جَرائرهم[١٩]، فلم تَجِدْ سبيلًا لك إلا اقتحام المهالك ؟! وإنّ فى وَجْهك الأسود لَدلالةً على صِحَّةِ رَأيى!! مَنْ أنتَ أيها الأسود إذا لم تكن عبْدًا آبقًا ؟

٧ عنترة يظهر شخصيته للنعمان ويرد على اتهاماته وسخريته

فقال عنترة فى حَنَقٍ: أما وقد ذَكَرْتَ سَوادِى فاعْلَم أيها الملك ما يَمْلؤكَ فَزَعًا، ثم تَضَاءلْ فى نَفْسِكَ ومُرْ هؤلاء الشيوخَ الذين يَنظرون إلىَّ بأعين تَقْدَح الشَّرَر[٢٠] أن يَتَضَاءلوا فى أنفسهم، أنا عنترة بن شداد. فَسَرتْ ضَجَّةٌ فى الجَمْع، وقال النعمان فى صيحة: عَنترة ؟!

فقال عنترة: أنا (عنترة بن شداد) فاشْكر (منَاة) على أنك استطعتَ أن تَأسِرَنى، أنا عنترة الذى سَمِعْتَ عنه، وعَرَفْت مَنْ هُو. إنك سمعت الكثير مِنْ خَبَرى، فلا حاجة بى إلى أنْ أقُصَّ عليك حديثى. فمال النعمانُ إلى ظَهْر كُرسِيِّه، وقال بَاسِمًا فى سخرية: لو صَدَقْتَ أيها الفتَى، لَسَرَّنى أن أراك فى القيود أمامِى؛ إنك كُنتَ تُفْزِعُ الضعفاء، وتَقْطَعُ السبيل، وكانت القبائل تَضِجُّ من اعتدائك، نَعم لو صَدَقْتَ لسرنى أن أراك مُقيدًا أمامى، فقد دَفعَك الغرورُ إلى أن هَمَمْتَ باستباحةِ حِمَاى وانتهاك حُرْمَتى، وحَقِّ منَاة[٢١]، لو كنتَ عنترة لقد سَعَيْتَ إلى هنا لِتلْقَى عِقابَك !!!

فقال عنترة ضاحكًا: وهل عَلَى امْرِئ مِنْ عارٍ إذا أُخِذَ أسيرًا ؟! هَل عَلىَّ من عَار إذا أحاط بى الألوف مِنْ جيشك فَأثْخَنُونى بالجراح حتى استطاعُوا الاقتراب منى ؟! لقد جَدَّلْت[٢٢] مِنْ أبطالك مَنْ جَدَّلْتُ، وشَرَّدْتُ مَنْ شرَّدْت، وطاعنتُ حَتى لم يَبْق فى يَدِى سنان ولا تَحْتِى فَرسٌ ! فقال النعمان فى حَنق:

(١٦) يرسف فى الأغلال: يمشى فى القيود.
(١٧) 📖 المُثْلَة: تشويه الجسد.
(١٨) 📖 اربَدَّ وجه الملك: تغير.
(١٩) 📖 جرائرهم: شرورهم.
(٢٠) تقدح الشرر: المراد: تشتعل غيظًا.
(٢١) مناة: أحد الأصنام المعبودة عند العرب.
(٢٢) جَدَّلت: صرعت وقتلت.

KTABYEG.COM

إنك تملأُ فمك بأقوال تزعم أنك أَهْلٌ لها، أنت تزعم أنك عنترة، فَمَنْ لى أنْ أُصَدِّقك؟ وما أَحْرَاكَ[٢٣] أن تقولَ هذا كَذِبًا لأجعل لك قَدْرًا!

فقال عنترة ضاحكًا: وهذه أُخْرى منك أيها الملك، ما كانَ ينبغى لك أنْ تقَع فى مثلها، فما الذى يَحْمِلُنى على الكَذِب بأن أَنْتَحِل اسم عنترة وأنا أعرف أن هذا الاسم لا يَحْمِلُ لى إلا عَدَاوَتك وكَراهَتَك؟! لقد كنتُ أَطْمعُ فى عَفْوِك لو كنتُ بَعضَ صَعاليك العرب، فقد كنتَ جديرًا أن تعفو عنى إعجابًا بما رَأَيْتَ مِنْ بَلائى فى حَرْبك، لقد كان ذلك يُطْمِعُنِى فى عَفْوِك لعلك تَتَّخِذنى سائر الحياة مِنْ أعوانِك، ولكنك تعلم أن عنترة لا يَهَبُ سيفَهُ إلا لِعَبْس، ولا يَطمعُ فى النجاة مِنْ يد مَلكٍ يَحْمِلُ له ذكرَى مَواقع أَوْقَع فيها برعاياه وحُلفائه، ولَستُ أطمع فى النَّجاة وأنا أجبهُك[٢٤] بِقَوْلى فى إيوانك وبين شيوخ قومك..

ثم اندفَع كأنه يُنْشدُ قصيدةً، فرفع رأسه وقال مُباهيًا: لَكَمْ كان لقومى مِنْ تَاراتٍ عندك وعِنْدَ حلفائك، لَكَمْ وَطِئْنا بِلَاد طيئ، وكم أَخَذْنا مِنْ غنائم (البحرين وهَجَر والعراق) وكم أغرْنا على قَوافِلك فى الحَجيج، لقد كنتُ أنا فى صدر الكتائب فى كل غزوة أحُوز الغنائم، وأُشتِّتُ الجُموعَ!

فقال الملك غاضبًا وَسط صَخَبِ الغيظ مِنْ حَوْله: أَتفخرُ علىَّ وتُبَاهِى بقتالى؟! لقد كنتُ أَطلبُك أيها الشَّقىُّ لأوقع بك العقاب، فانْتَظِرْ ما تَستَحِقُّ منه، أَتَفْخرُ علىَّ أيها الشَّقِىُّ فى مَجلسى؟ فقال عنترة: إننى أَذكر الحَقَّ منذ سألتنى، ولَسْتُ أخشَى أن تَقْتلنى، فكم قتلتُ مِنْ شُجعانك، ولم أَشْعُر بِخَلْجَةِ رحمةٍ أو ألمٍ فى فُؤادى، لستُ أطمعُ فى الحياة، وأنا الذى أعرف هَوان الحياة!

٨ النعمانُ يَسْتَفْسِرُ عن السِّر وراءَ تَجرُّؤ عنترة على حِمَاه

فقال الملك وهو يحاول أن يُمْسِكَ نفسه: لم أكُنْ لأُطِيل معك الحديثَ لولا أننى عَجِبْتُ منك وأردت أن أَطَّلِعَ على حقيقةِ أمرك، أليست عبسٌ اليوم مِنْ حُلفائى؟ فما مَجيئك إلىَّ غازيًا إذا لم يكن فى الأمر سرٌّ يَخْفَى علَى فهمى؟ أَجِئْتَ تستزيدُ مِنَ الفخر بحربى؟ أتريد أن تملأ فمك بأنك غزوتَ النعمان؟

فقال عنترة فى هدوء: لا، أيها الملك لم أُرِدْ بذلك فَخْرًا.

فقال النعمان: إنك فَتًى خَدَعك الناس مُنْذ أشادُوا بك وتحدَّثُوا عنك وَردَّدوا شعرك؛ فحملك زَهْوُك على أن تَسْعَى إلى الأسد فى عَرينه.

فأجاب عنترة: لَكَمْ سعيتُ إلى الأسود فى عَرائنها[٢٥]، ولـكنِّى أيها الملكُ لا أطمعُ إلى حديثِ الناس عَنِّى؛ فإنه لن يُجْدِينى اليومَ شَيْئًا. فقال النعمان فى مَرارة: ألم يُجْدِكَ حديثُ الناسِ شيئًا؟ ألم يُلْحِقْكَ أَبوك بعبس بِفَضْلِ هذه الأحاديث؟ ألم تَكُنْ لولا تلك الأحاديث عَبْدَ شداد وابن زَبيبة؟ فقال عنترةُ فى دَفْعةٍ: أتأمَنُ أنْ أذكُرَ أمَّك أيها الملك وأنتَ تَذْكُر أمى؟!

٩ اعتذارُ النعمان لعنترة

فعَادت الغمغَمْةُ الحانِقةُ إلى الجمْع حتى رفع النعمان يَده عَابسًا يهَدِّئُ الناسَ، ثم قال: لا بأس عليك يا عنترة، فإنَّها فَلْتَةٌ مِنِّى، وما كان ينبغى لى أن أقولها، اغفر لى يا عنترة فإنها سَقْطَةٌ منى.. فتحرك عنترة فى تأثُّر وقال له الملك فى لين: قل لى يا عنترة فِيمَ أتيتَ إذا لَمْ تُرِدْ فخرًا، فهل يُبَيِّتُ قومُكَ عداوتى، فبعثوك لِتُثيرَ الحربَ معى؟ فقال عنترة: لا، أيها الملك، إنَّ قومى لا يَعْرِفُون أَيْنَ مكانى، وليس بهم حِرْصٌ إلا على مَوَدَّتك وطاعتك.

فقال النعمان: إنك أيها الفتى تُحَيِّرُنى: فهل أنت مُخْبِرى عن أمرك، أمْ هو سِرٌّ لا ينبغى لك أن تُطْلِعَنى عليه؟ أمَا تُطْلِعنى عَلَى الحق ليستقرَّ عليه رأيى؟

(٢٣) ما أحراك: ما أجدرك.

(٢٤) 📖 أجبهك: أجابهك فى صراحة «أواجهك».

(٢٥) 📖 عرائنها: العرين بيت الأسد.

KTABYEG.COM

١٠ عنترة يعترف بسر قدومه على النعمان

فقال عنترة مترددًا: أما وقد أَبَيْت إلا أنْ تَعْرِف الحق فإنى مُفْضٍ به إليك أيها الملك، ما أتيتُ إلا لأَطْلُب مَهرَ ابنَةِ عَمِّى.

فقال النعمان فى دَفْعةٍ: عبلة ! فقال عنترة: نَعم، عبلةُ أيها الملك .

فَتَبَسَّم النعمان، ومَال على كرسيه مُرْتَاحًا وقال: ولم تَجِدْ مَهْرها إلا مِنْ إبلى؟

فقال عنترةُ: وأنَّى لى أَنْ أجدَ النُّوق العصافير إلا فى مَسَارحك[٢٦]؟ وهكذا أَغْلَى أبوها المهر، وما أَشَدَّ حِرْصى على أن يكونَ مَهْرُها غَاليًا؟!

فقال النعمانُ: وتأخذُ مَهْرها على رَغْمِ أَنفى؟!

فقال عنترة: لَمْ أَعتَدْ أيها الملك سُؤالًا ...

فقال النعمان: ولو طَعنَك أحدُ هؤلاء طَعْنةً نَفذَتْ فى ظهرك، ودَقَّتْ عِظَامَ صُلْبك؟

فقال عنترة: ما كُنت إذن سِوَى أحد مَنْ يُقْتلون فى الحروب.

فقال النعمان فى سخرية: أما كنتَ تَخْشَى حُزْنَ عبلة؟

فقال عنترة فى غضب: لو غَيرك قالها أيها الملك!!

فقال النعمان: لا أريدُ أنْ أُغْضِبك، فقل ولا تَحْجب عنى شيئًا، لقد قلتَ فى خطابك لى مَا لَمْ يجرؤ أحدٌ على قوله، فقل ولا تَحْجُبْ عنى شيئًا.

فقال عنترة: لستُ أَطْلُبُ سَخَطك، ولكنِّى لا أباليه[٢٧].

فقال النعمانُ متَرفقًا: إنما أردتُ أن أعرفَ مِقْدَار حُبِّك لها، لقد تحدث الناسُ عنك وعنها حتى أَحْبَبتُ أن أسمعَ منك حديثها.

١١ إعجاب النعمان بالحب العظيم الذى يُكِنُّهُ عنترة لعبلة

فأطرق عنترة حينًا ثم قال: أما وقد أردتَ أيها الملكُ أن أحدثكَ عَنْ عبلة، فإن اسْمها ليَحْلُو لى إذا سَمِعْتُه حتى لأُحَدِّث به نفسى لأَسْمَعَه خاليًا. إنها أيها الملك أعزُّ عَلىَّ مِنْ حياتى، وأحَبُّ إلىَّ مِنْ جَوارحى، ولو كانتْ حياتى تَدْفَعُ عن عينها دَمْعةً لجُدْتُ بها راضيًا، ولو اعترضتنى النِّيران لَخُضْتُها فى سبيل تلبية كلمة منها، صُورتُها لا تزالُ تُؤْنسنى، ونَغَمُ حديثها ما يزال يتردَّد فى أُذُنى. لا أعرفُ خيرًا إلا ما ترضاه، ولا شَرًّا إلا ما تخْشاه أو تَأْباه، ليس فى الحياة جَمال عندى إلا إذا كان فيه مِنْها شَبَهٌ. ولو طُويَتْ لى الأرض لما كان فيها شىء يُكَافِئُ رِضَاها، ولو طَأْطَأتْ لِى السماء، حتى تناولت نجومها لأهديها إليها، لوجدت ذلك دون قدرها. وكان النعمان يسمعُ حديثه مَأخوذًا فى دَهْشة مُقْبلًا عليه بِسَمعه وبَصرِه، فلما فَرغَ مِنْ حديثه قال له فى ارتياح: إنك تتحدَّثُ عنها حديثًا عَجبًا، لقد سمِعتُ شعرك فيها، ولكن قَوْلك هذا أبلغ مِن الشعر وأطيب وَقْعًا.

فقال عنترة فى حماس: هذا أيها الملك وَصْفُ اللفظِ، وليس اللفظُ سِوَى آلةٍ يَنْقُلُ بها الناسُ ما اعتادُوا أن يُحِسُّوه مِنْ خَسيس المعانِى، إلا أنَّ ما أُحِسُّه فى نَفْسِى لعبلة يَضيق عنه اللفظ، فهو ظل حَائِلٌ[٢٨] وصَدى فاتر، لا يَصفُ حقيقة ما أَحْمِلُه لعبلة.

(٢٦) 📖 مسارحك: مراعيك.
(٢٧) 📖 لا أباليه: لا أهتم به.
(٢٨) 📖 ظل حائل: متغير، المراد: زائل.

KTABYEG.COM

١٢ النعمان يكرم عنترة وينزله ضيفًا عنده

فقال (النعمان) بلينٍ: إذنْ فقد جِئتَ تَطلبُ مَهْر هذه الفتاة التى شُغِفْتَ بها. فنظر عنترة إليه كأنه يُريدُ أن يتبين ما يَقْصِدُ بقوله، خَاشيًا أن يكونَ قد عادَ إلى سخريته. وأدرك النعمان ما يَدُور فى نفسه، فقال مبادرًا: أتُحِبُّ أنْ تعودَ بالنُّوق العصافير مِنْ بَابِى؟ فعاد الهدوء إلى عنترة، وقال كأنه يحلم: إذَن لبقيتُ لك أَبدَ الدَّهْرِ شَاكرًا.

فالتفت النعمان إلى رجل واقِف عند رأسه وقال له: خُذْ عنترة معك يا أبا الحارث، وامْضِ به إلى بيتك وفُكَّ عنه القيود؛ فهو ضَيْفِى.

والتفت إلى عنترة قائلًا: واغْدُ عَلىَّ أوَّل شَىْءٍ فى الصباح يا عنترة.

فنظر عنترةُ إليه متأثرًا، وصاح بَاسِطًا يديه: أيها الملك، أيها الملك، لقد غَمَرتنى!! ثم طوى نفسه، وأطْرق وأدار وجهه، وسار يَسْحَب قُيودَه وأبو الحارث يسيرُ مِنْ ورائه يُساعِدُه على المسير.

KTABYEG.COM

تفاصيل الأحداث

١ مكانة عالية لعنترة عند النعمان ولكنه لا يحس بالسعادة

بَقى عنترةُ فى الحِيرَة سِنينَ لَم يَكُنْ يَحْسَبُ أنه سوفَ يَقْضيهَا بها، ولَقِىَ عندَ النعمانِ فى أثنائها مكانةً لم يَكُنْ يَحْلُم أنَّ الأقدارَ تَجْرى بها، وحَازمِن الغِنى ما لم يَكنْ يَخْطِرُ بباله، وبَلغَ مِنَ المجدِ ما لم يَبْلُغْه أحدٌ مِنْ سَادة القبائل.

أقامَ تلك السِّنينَ فى جِوَارِ صَدِيقه الفَارِس (أبى الحارث) صَاحِب النعمان، وقد أَنِسَ إليه منذ عَاشَره، وكان أبُو الحارث يَطْرَبُ لِسَماع شِعْره، فلا يكادُ يَخْلُو منه مَجْلسُه إلا إذا سارَ فى كَتِيبة إلى غَزْوةٍ من الغَزَوات، فإذا عادَ لازمه فى غُدُواته ورَوَحَاته وفى أَماسيه ولَياليه، وكان عنترةُ بين حِينٍ وحين ينظرُ إلى خَلْفِه، ويَذْكُر أيامه الخَالية كما ينظرُ الواقف فوق رَأْسِ الجَبل إلى الوادى البعيد الذى يَراهُ دُونه عند الأُفق، فيراه غائمًا غامضًا يُحيطُ به الضَّباب، ولا تَبْدُو منه إلا أشْبَاحٌ ضئيلةٌ، تتحرَّكُ خافِتَةً مثل أَشْبَاح الجنِّ التى طالما ظَهرتْ له أثناء تجواله فى لَيْل الصَّحراء، ولكنه كان يرى فى ثنايا ذلك الماضِى الجَاهِم صُورة حَبيبةٍ لم تستطع الأيام أن تَمْحوَها، صُورة عبلة التى وهب لها قلْبه، وجعل فيها مناط أمله. وكان لا يَفْتأ يتذكَّر كيف رَحَل مِنْ وطنه يَطْلُبُ مَهْرها الغالىَ، وكيف دَفعه ذلك الحبُّ اليائس إلى اقْتحَام المهالِك حتى جَرفَتْه المقاديرُ. فأقامَ بالحِيرة هذه المدةَ الطويلةَ، وضَرَبَ فى آفاق العِراق وفَارِس، وحَلَّ فى قصور كسرى، وقاتل مع أقوام لم يَرَهُم مِنْ قبل، وحاربَ أقوامًا آخرين لم يَكُنْ بينه وبينهم عَدَاوةٌ، بل لم يَخْطرُوا له مِنْ قبل على بَالٍ، فحاربَ فى سبيل النُّعمان تارةً، وفى سبيل كِسرى تارةً، كأنه قد أصبح رَجُلًا صِنَاعته سَفْكُ الدماء، وكان كلما تأمل ذلك الزَّمن الماضِىَ، أحسَّ شيئًا فى صَدره يُشْبه الثورة والحَنق، فإنها الأقدارُ أَقْحَمته فى عواصِفها، وهو مُرْغَمٌ لا يكاد يستطيعُ منها انفلاتًا.

٢ عبودية لعنترة من نوع جديد

فما كان مُقامُه عند النعمان ومُحَاربته أعداءَه، بأقلَّ فى نظره من الرِّق وإن كان رقًّا تحيطُ به هَالةٌ كاذبةٌ مِنْ زُخْرف الحياة. وكان كلما فَرغَ إلى ذكريات حياته الأولى بَدَا له رقُّه الأول أَهْوَنَ قَيْدًا وأَخَفَّ ذُلًّا!! كان مِنْ قبلُ يَغْضب؛ لأنه كان (عَبْد شدادٍ وابنَ زبيبةَ)، ولكنه كان لا يُحاربُ إلا لِقَومه؛ لِكَىْ يَحْمىَ حُرَمَهم، ويَدْفَع الأذَى عنهم، كان يحارب ليَحْمِىَ عبلة وقومَها، ويَحُوزَ الغنائم لكى يتَفَضَّلَ عليهم بها، ويَشْفِىَ بإدْراك الثأرمِنَ العدُوِّ؛ لكى يهتِفُوا باسمه قائلين: «وَيْك عنترأَقْدم». كان يحاربُ مِنْ أجل عبلة وقَوْمها، لا مِنْ أجل هذه الأموال التى كان النعمان يُغْدقها عليه، وهذا المجد الذى كان يُلْقيه إليه أجرًا على ضربات سَيْفه ..

وأخذ يُحِسُّ المَللَ يَدُبُّ[١] إليه شيئًا فشيئًا، ووجدَ أنَّ ذكرَى أرض الشِّربَّة تُعاودُه بين حينٍ وحينٍ، فلا يكاد يمرُّ به يومٌ بغير أن تتحركَ شُجُونه، فإذا خلا إلى نفسه بعد زَحْمة اليوم جَاشَتْ همومُه[٢]، وسَاوَرته[٣] حتى جَعلت الحِيرَة تَصْغُر فى عينيه وتَضيقُ به. وهانَتْ عنده الأموالُ التى حازَها، والجواهرُ التى ازْدَحم بها منزلُه، وخُيِّلَ إليه أن تلك الإبل وتلك النُّوق العصافير التى تُعَدُّ بالألوف تُثْقِلُه، وتَقْعُدُ به عَنِ العودة إلى مَوْطِن سعادته.

(١) يَدب: يتطرق.
(٢) جاشت همومه: كثرت.
(٣) ساورته: غالبته.

KTABYEG.COM

٣ السماح لعنترة بالعودة إلى وطنه بعد أن ساءت حالته

فاستأذن النعمانَ مرةً بعدَ مرَّةٍ فى السَّفر، ولكنه كان يُدَافِعه، ويتمسَّكُ به حتى بلغ الضِّيقُ منه مَبْلغَ التَّبرم، فزاد إقبالُه على الخمر، وأشفق عليه صَديقُه أبو الحارث، فَشَفَع له عند الملك حتى أذنَ له بالعودة إلى وطنه، وما كادَ يأذن له حتى سارعَ إلى الاستعداد، وانتظر بقَلْبٍ وَاجِفٍ(٤) يومَ الرَّحيلِ.

٤ حفل تكريم لوداع عنترة

وأعَدَّ له (أبو الحارثِ) مأدُبةً فى ليلةِ الوَداع، واجتمعَ له فيها شيوخُ الحِيرَة وفُرسانها، وكانت مَأْدُبةً صاخبةً فى غنائِها ورَقْصِها وخَمْرِها. وشارك عَنترةُ بإنشاده مِنْ شعرِه، وألقى قِطعًا منه للفتياتِ يُغنِّينَ بها حتى مَضَى أكثرُ الليلِ، وذَهَب الضيوفُ، ولم يبقَ فى المجلسِ معَ عنترةَ إلا صَاحِبُ الدار.

فقال عنترة: لئِن شَكَرْتُك يا (أبا الحَارِث) فَلَسْتُ بقادرٍ على أَنْ أوَفِّيَكَ حَقَّك. ثم فتح ذِرَاعَيْه، وعَانقَه عِناقًا طويلًا، فقال أبو الحارثِ: لَئِنْ كانَ فى أيامنا مُدَّة فإن أُمْنِيَّتى أن أَرَاك.

فأجابَ عنترةُ: ولَئِنْ تَفرَّقْنا فلقدْ عَرَفْتُ فيكَ كَيف يكُونُ الصَّديقُ، لقد عَلَّمْتَنِى فى الحياةِ مَعْنًى جديدًا يا أبا الحارث. ثم صَافَحه، ومَضَى خارجًا، وخرج صَديقُه يُشَيِّعُه(٥) صَامتًا إلى المِرْبَد(٦) فى الفَضَاء الفسيح.

(٤) واجف: خافق مضطرب.

(٥) يشيعه: يودعه.

(٦) المِرْبد: الفضاء المتسع يستخدم جرنًا أو مناخًا للإبل.

KTABYEG.COM

الفصل الخامس عشر

عودةٌ إلى الديارِ

تفاصيل الأحداث

١ عنترة فى حيرة وقلق وأوهام وهو فى طريق العودة إلى وطنه

سار عنترة فى رَكْبه العَظيم يَضْرِبُ فِى الصحراءِ عائدًا إلى أَرْضِ الشِّربَّة والعَلَم السَّعدى، حتى قَطع فَيافِىَ اليَمَامة(١) ونَجْد، ودَخل إلى أرضِ الحجاز، ولكنَّه كان كلَّما اقترب مِنْ وطنه خالجتْه الشكوك والأوهام، وأَحسَّ كأنَّ الشُّعْلَة المتقدةَ فى صدْره تَضْمَحِلُّ وتَخْبو، فكان بين حين وآخَرَ يَسألُ نفسه عَمَّا هناك فى تلك الأرضِ التى كان يَتَحَرَّقُ لكى يَعُودَ إليها، وهل إذا عاد إليها وَجَدَ عبلة لا تزَال مقيمة على عَهْدِها؟ لقد كان لا يزالُ يحملُ التَّميمَة التى أَهْدَتْها إليه يَوْم وَدَاعِها، وكانت ألفاظُها لا تزالُ فى أذنيه كُلَّما تذكَّرها، ولكن ألا تَزالُ بعد تلك السِّنين تَذْكُره، وتَحْمِلُ له الوفاء؟ وكان أحيانًا يبلُغ من الشَّك أن يسألَ نَفسَه: أهو حقًّا يُحبُّها كما خُيِّلَ إليه، أمْ هِى لَجَاجَةُ الوهم تزْعم له أنه كذلك؟ ومَا هى إلا الكِبرياءُ والعناد والتطلع إلى المَمنُوع!! وكان يَتَمثَّلُ نفسه كأنه لَقِيهَا وحَدَّثها، فلا يَدْرِى كيف يكون حَديثُه بعد أن فَارقَها تلك السنين الطويلة، وهل يستطيع إذا رآها أنْ يتَذلَّل لها كما كانَ يتذللُ ويُسَمِّىَ نَفْسَه عَبْدَها؟ هل يستطيعُ أن يَجِدَ المتْعَة فى كلمة يَسْمَعُها، أو بَسْمَةِ عَطْفٍ تجود بها عليه فَتُضِىء قلبه وتنقله إلى عَالَم سِحْرى من السعادةِ؟

ولم يَخْلُ قلبُه مِنَ القلق كُلَّما تأمل قَوْمه بعد أن غابَ عنهم تلك السنين، فهل يَعُودُ إلى (عمارة ابن زياد) و(مالك بن قراد) و(عمرو بن مالك) وكل هؤلاء؟ وهل يستطيعُ أنْ ينظرَ إليهم كما كانَ يَنْظُر، وأن يغضب إذَا غاضَبُوه، وأن يَرْضَى إذا أقبلوا عليه؟ هل يستطيعُ أن يَعُود إلى مُعاشرتهم وأن يفهمهم إذا حَدَّثُوه وأن يَفْهَموه إذا تحدث إليهم؟

كان كلما اقتربَ مِنْ وطنه ثارت الشُّكوك فى نفسه، حتى كان يُحِسُّ أنه صار غريبًا عن قومه، وأنه لنْ يستطيعَ الحياةَ بينَ ظَهْرانيهِم.

وكان يُخَيَّل إليه أَنَّه قد أَخْطأ إذْ أطاعَ وَهْمَه الكاذِب، فعزمَ على العودة إلى عَبْس، وفارقَ أصحابه الذين كانَ يعيشُ بينهم سيدًا، واعْتادَ أن يَسْمُرَ فى أنديتهم ويُعَاملهم ويُخَاطِبهم ويحارب مَعهم وهو عنترة بَطل العَربِ، فهؤلاء الذين عَرفُوه فى الحِيرة والمدائن ولم يَقُولوا له يومًا: يابن زبيبة. ولم يُعَيِّرُوه يومًا بِسَوادِ لَوْنه ولا بِهُجْنَة(٢) نَسَبِه، بل كانوا يَعُدُّونَه سيدًا كريمًا؛ لأنه كان سيدًا كريمًا، فقدَّموه وأَعْلَوْا مكانه؛ لأنه كان جَديرًا بالتقديم والتَّمْجيد، فما الذى حَمَله على أن يَضيق بالمقامِ فيهم لِكَى يعودَ إلى هؤلاء الذين نشأَ فيهم عَبْدًا رقيقًا، وقَضَى معهم الحياةَ فى نِضَالٍ وكفاحٍ حتى خَرج عنهم يَضْرِبُ فى الأرض يَطْلُبُ مهر عبلة مِنْ عرين الأسد؟ أليس هؤلاء هم الذين لم يرضوا به زوجًا لعبلة حتى يكلفوه بلوغَ المحَالِ؟ حدثتْه نفسه مرارًا أنه أخطأ، وأن الأَوْلى به أن يعود أدراجه إلى الحيرة حيث يقيم عزيزًا، ويُغالِب هذا القَلْبَ الذى طَالما أذلَّه وعذَّبه، ولكنه مع ذلك كُلِّه سار فى طريقه يَدْفعه دَافعٌ غامِضٌ، كَأَن الأقدارَ هى التى كانت تُسَيِّرُه نحو غاية لا يُدْرِكُها.

(١) فيافى اليمامة: صحاريها.

(٢) بِهُجْنة نسبه: أى: ابن أَمَةٍ، والهجين من الناس: هو من كان أبوه عربيًّا وأمه أعجمية.

KTABYEG.COM

٢ ذكريات عنترة ولقاؤه المفاجئ لأخيه شيبوب

ولما صارفى أرض الشِّربَّة بعد طول السَّير، رأى أنْ يُعَرِّجَ على الوادى الرَّملى الذى طالما شَهِدَ مَلاعب صِبَاه ومَراتِع فُتوَّته، ذلك الوادى الذى رَعَى فيه إبل شدَّاد، وصَارَع فيه رفاقَه، وتَعلَّم فيه الصَّيد والركوب، فإلى ذلك الوَادِى كانَ يَفْزَعُ كُلَّما ضاقَ بِعُنْف أبيه أو كبرياء عَمِّه أو ظُلْم حَاسِديه.

ولما بَدَت له نَاصيةُ الوادى خَطَر له ذِكْر أخيه شيبوب الذى أحبَّه وصَاحَبه، وكان فى كُلِّ مكانٍ مثل ظله؛ كان تارةً جَاسُوسَهُ وتارة رَسُولَه، وكان حينًا خَادمَه وحينًا سَميره، وكان آخِرُ عَهْدِه به فى رِحْلته إلى العراق إذْ بقى معه حتى اسْتَحَرَّ(٣) القتال بينه وبين جيش النعمان، ثم اختفَى عنه إذْ أحاط به الفرسانُ وجَعَلُوا يَطْعنونه حتى صَرَعُوه عن فرسه الأبْجَر، ولم يَدْرِ عنترةُ وهو يذكر أخاه شيبوب أكان لا يزالُ حَيًّا يرعَى إبل سَادته أَمْ قد مَضَى فى سبيله كما مَضَت عن الدنيا أجيالُ الناس مِنْ قَبْله، وكما تَمْضِى مِنْ بَعْدِه. وخَفَق قلبه عندما تذكَّر ذلك الأخ الوفِىَّ؛ فقد عاش ما عاش معه عَبْدًا مَرحًا يَنْعَم فى رِقِّه، ولا يَعْبأُ إلا بِطَعَامِه وشَرابِه وصَيْده، ولا يرى مِن الحياة إلا مَهْزَلةً لا تَسْتَحِقُّ شيئًا سِوَى أنْ يَسْخَر منها، ويَلْهوَ فيها ثم يَمْضِىَ عنها مَرِحًا إذا حَانَ أَجَلُه.

ولما اقتربَت القافِلَةُ من الوادى رَأى عنترةُ على البعد شَخْصًا على رَبْوة(٤)، فعادتْ إليه صُورُ الماضِى كأن لم يُفارِقْ تلك الأرض إلا منذُ ليلة، لقد كان كُلُّ شىء على عَهْدِه لم يتغير منه شَىءٌ؛ فالسماءُ لا تزالُ زرقاءَ صافيةً، والرمال لا تزالُ صفراء لامعةً، ووصَعَّدَ بَصَرَهُ إلى(٥) الشخص الذى فوق الرَّبْوة وأحَسَّ قَلْبَه يتحرَّك إليه، فقد كان فيه شَىء يُذكِّرُه بوقفة شَيبوب، وهَمز جواده مسرعًا نحوه، وكان الشخص لا يزالُ ينظرُ نحوه متكئًا على رمحه، فلما صار من الرَّبوة على مرمى قوسين تبيَّنَ وجهَ أخيهِ شيبوب ينظرُ إليه، وإلى القافِلة العظيمة التى أَتَتْ تنحدرُ إلى الوادى مِنْ ورائه، ولكن مَظْهَره كان يدل عَلى أنه كان مُتْعبًا لا يَدْرى مَنْ يكون صاحبُ هذا الموكب العظيم، فلما صارَ عنترة على مَسْمع منه ناداه باسمه، فما كاد شيبوب يَسْمَع صوته، حتى وَثب نازلًا فى قفزاتٍ واسعةٍ، وهو مُشَمِّرٌ عن ساقيه الطويلتين، فاتحًا فَمه الواسع فى بسمة كَشَفَتْ عَنْ أسنانه النَّضِيدة البيضاء، وتَرَجَّل عنترة فوجدَ نفسه بين ذِراعىْ أخيهِ وهو يقبِّلُ وَجْهه وكتفَيهِ ويَتَشَمَّمه باكيًا يَصيح: عنترةُ، أخى عنترة!

فقال عنترةُ وهو يَضُمُّه فى حرارة: أنتَ هذا يا شيبوب مرةً أخرى! إنك لأوَّلُ مَنْ أرى، وإنك لأول مَنْ أَحْبَبْتُ أن أَرَى.

فقال شيبوب بِصَوْتٍ مُخْتنقٍ: وأنتَ هَذا، أنت هذا، حَىٌّ ألمسُكَ بِيدىَّ وأَضُمُّك إلى صَدْرِى، وأُحِسُّ دِفْءَ أعضائِك..! ثم أرسلَه مِنْ ذراعيه ونَظَر إليهِ فى دهشةٍ وقال:

– إنى لا أكادُ أُصَدِّقُ عينىَّ. وجعل يُصعِّدُ فيه بَصَره ويُصَوِّبُه، فقال عنترة وهو يأخذُ بذراعِه:

أتَرى فِىَّ ما تُنْكِرُيا شيبوب؟ ألا تُصَدِّقُ أننِى أخوكَ؟ فقال شيبوب فى مَرحه المعْتادِ: كيف أكذِّب نَفْسى وأَزْعُم أنك عنترة؟ لقد رأيتُك والفُرْسان يُحيطُون بك، فقلت: إنك هَالِكٌ لا محَالةَ.

فقال عنترة وهو يَسيرُ به بعيدًا عنِ الطريقِ: لقد افْتَقدتُك يا شيبوب، واشْتَقْتُ إلى حديثِك، فَمِلْ بنا إلى هذه الرَّبوةِ؛ فإن بِى شَوْقًا إلى الجلوسِ معكَ على رَبْوةٍ مثلها.

فقال شيبوب، وهو ينظر نحو القافِلة العظيمةِ التى كانت تُقْبلُ مُبْطِئةً:

– أهذه القافلةُ لك؟

فأجاب عنترة: أتعجبُكَ يا شيبوب؟ ومع ذلك فإنَّ بى شَوْقًا إلى أن أضطجع على هذه الرمال وأَسْتقبل نَسيمَ الصَّبا فى

(٣) 🕮 استحر: اشتد.

(٤) 🕮 ربوة: مرتفع من الأرض.

(٥) 🕮 يصَعِّد بَصَره: يرسل بصره إلى أعلاه تارة وإلى أسفله تارة أخرى.

KTABYEG.COM

الأصيل. وصعد فى الربوة فاستلقى على سنامها ثم قال: أكمل قِصتك يا شيبوب، ماذا فعلتَ بعد أن رأَيْتَ الفرسانَ يُحيطون بى؟ لقد كنتُ أَحْسَبُك أنك ذَهبتَ فى رِماح القوم.

فقال شيبوب وهو يَمْسح دمعةً فى عينه: رأيتُ الرِّماح تَتهاوَى إليك وأنتَ تسقطُ صَرِيعًا فتَمزَّق قلبى. نعم تمزَّق قلبى؛ فقد علمتُ أننى سَوف أقضِى سائرَ الحياةِ وَحيدًا لا أجِدُ عنترة إلى جانبى، فأَطلقْتُ سَاقىَّ للريح أَطلبُ النجاةَ.

فضحك عنترة، وقال: إنك لَتُحِبُّ الحياةَ يا شيبوبُ.

فأجاب شيبوب باسمًا: هىَ أحبُّ إلىَّ من طعنات الرماح يا عنترة، لقد كانت الأسِنَّة تلمع فى نُور الشمس قاسِيةً مخيفة، وماذا كنتُ أُغْنِى عنك لو قُتِلْتُ إلى جانبك؟! أَطْلقتُ ساقىَّ للرياح وعُدْتُ إلى قومى.

فأجاب عنترة: أهُم قومُك يا شيبوبُ؟ وسكت حينًا وأخذ يَعْبَثُ بكفِّه فى الرمالِ الناعمةِ، ثم استأنف فقال: لقد كنتَ خيرًا منى، إنك لم تَحْقِد على عَبْس كما حَقَدْتُ أنا عليهم، كنت تقول:

إنك تكذب عليهم وتَسخرُ منهم، ولكنك عُدْتَ إليهم لأنهم قومك.

فقال شيبوب: عُدت إلى قومى؛ لأنْعاك إليهم، فما كُلَّ يوم يُقتل منهم مثل عنترة.

فقال عنترة. ونَعَيْتَنِى إليهم؟

فأجاب شيبوبٌ: قضينا شَهْرًا نَبكى، لَكَمْ بَكَتْ زبيبة، ولا تزال تبكى ولا تُصدِّق أبدًا أنك هلَكت، فهى إلى اليوم تَزعم أنك عائد إليها.

فقال عنترة فى رِقةٍ: مسْكينة زبيبة، ما أَحَبَّ إلىَّ أَنْ أَلْقاها..!

وأمسكَ لحظة وهو مُطْرِقٌ، ثم قال كأنه يُحَدِّث نفسَه:

لم يَبكِنِى فى عَبْس إلا زبيبة.

فقال شيبوب باسمًا: لقد بكَوْك جَميعًا. أَعْرِفُ أنك تَقْصِدُ عبلةَ يا عنترةُ. لقد بَكَتْكَ كما بكيناك، بل لقد كانت زَبيبة تذهب إليها لِتُسكِّنَ رَوْعها زاعمة لها أنك عائد إليها.

فأسْفر وجهُ عنترةَ[٦] وقال:

أحقًّا ما تقولُ يا شيبوبُ؟ وكيف هى اليوم؟ حَدثنى يا شيبوب عنها.

٣ أخبار عجيبة يسمعها عنترة عن عبلة وخطبتها لعمارة

فقال شيبوب فى خُبْثٍ: وماذا أُحَدِّثُك عنها؟ إننى لا أكادُ أراها. لقد عَادَتْ مع أبيها إلى أرْض الشَّربَّة بعد خروجك إلى العراق ولكنِّى كنتُ لا أراها. وماذا يَعْنينى منها إلا أنك كنت تتعلَّق بها وأنت حَىٌّ؟

فقال عنترة ضاحكًا: أراك لم تُصَدِّق بعد أننى لا أزال حيًّا.

فقال شيبوبٌ: ما كنت أحسَبُ أن أراك أبدًا، فكنت إذا مررت على مَنازل مالك أَحْسَست دافعًا يُبْعِدُنى عنها، فأسرع كأننى أهْرُبُ مِنْ رؤيتها.

فقال عنترة: وهى؟ حَدِّثْنى عنها هى، أَلمْ تَسمع زبيبة تتحدَّث عنها؟ فأجاب شيبوبٌ: هى امرأة. لَيْست عبلَةُ سِوَى امرأة، لقد بَكَتْ، ثم جَفَّفتْ دَمْعَها، ثم نَسِيَتْ!!

(٦) 📖 أسْفر وجه عنترة: أشرق.

KTABYEG.COM

فتحرك عنترةُ فى قلق وقال: امْضِ فى قَوْلك وحَدِّثنى عنها، أما سَمِعْتَ صَوْتَها؟ أما رأيتها يومًا؟ انقل إلىَّ أحاديث زَبيبة عنها.

فأجاب شيبوبٌ: إنك لا تزالُ تتعلَّقُ بها، لقد حسبتُ أنَّ هذه السنينَ قد أَنْسَتْك ذِكْرَها. فما هى إلا امرأةٌ من النساء، كنتُ بالأمس أمرُّ على خبائها فَسمِعْتُ غناءَ صَاحباتها.

فقال عنترة فى لهفة: أكانت تُغَنِّى؟ أهو شىءٌ جديدٌ؟

فأجاب شيبوبٌ: نعم هو (عمارةُ بنُ زيادٍ)، فما كادَ يَسْمع نبأ مَوْتِك حتى ذهب إلى أبيها وسَاق إليه المهر ثانيًا. وهل كان مالك لِيأبَى عمارة وهو يَسُوقُ إليه ألف ناقة مرةً أخرى؟! إنه لم يَسْألْ هذه المرة إذا كانت النوق من العصَافيرأمْ هِى من النُّسور.

فسكت عنترةُ حينًا، ثم قال فى فُتُورٍ: وهى؟ أتقول: إنها تُغَنِّى؟

فقال شيبوبٌ: لم أقل إنها تغنى. إننى سَمِعْتُ الغِناء مِن خبائها.

ثم نظر إلى القافلة العظيمة وقال: ولكن خَبِّرْنى كيف بَلَغْتَ هذا؟

٤ آلام عنترة وسخريته من الحياة

فقال عنترةُ فى حزنٍ: اسأل الأيام كيف تعبَثُ بنا؟ إنها تَعْبَسُ أحيانًا وتُدْبِرُ وتَضِنُّ فلا تكاد تَدَع للمرء أملًا، ثم تَضْحَك أحيانًا وتَسْخو وتقبل فلا تَدْرى أكانت جادة فى إقبالها أم فى إدبارها؟ لقد رأيتَنى والفُرسانُ يَطعنوننى، وقد سَقَطتُ بينهم صَريعًا، وها أنت هذا تَرانى أعودُ إليك وهذه القافلة العظيمة تَسيرُ ورائى.

وأطرق حينًا، ثم قال كأنه يحدث نفسه: باطلٌ وغرورٌ وسُخْريةٌ مِنَ الحَمْقَى!!

فقال شيبوبٌ متعجبًا: لَشَدَّ ما تغيَّرْتَ يا أخى!

فأجاب عنترةُ: لقد تَقَلَّبَ بى الدهرُ وهَزَّنى؛ كم حروبٍ شَهِدْتُها! وكم بلادٍ رأيتُها! قضيتُ هذه السنينَ لاهيًا عن نفسى، فكنت لا أحسُّ إلا أننى تَاجِرُ دماء أَقْتلُ، وأَقْتلُ وأَقْتلُ، ولا أكادُ أَحْيَا لنفسى، وذُقْتُ ما ذُقْتُ مِنْ نَعِيم ولهوٍ، ولكنى لم أُحسَّ يومًا أننى سعيد.. قل لى يا شيبوبُ: كَمْ غَزَوْتُم؟ وكم غُزِيتُم؟ وماذا غَنِمتُم؟ وماذا غَنِمَ الأعداءُ منكم؟ وحدِّثْنى، أما ذكرتم يومًا عنتَرة؟

٥ شيبوب لا يصدق نفسه بعودة عنترة.. وعنترة يصر على سماع أخبار عبلة

قال شيبوبٌ فى حرارةٍ: ما زلْتُ أذكرُك فى صَباحى ومسائى، وكم نَدِمْتُ على أننى لم أبْقَ معك حتى نُقتَلَ جميعًا! كانت الحياةُ عندى كئيبةً مُوحشةً يا عنترةُ، ولكنك هكذا تعود مرة أخرى، أأنت عنترةُ حقًّا؟ وحَقِّ مناة لَسْتَ عنترةَ الذى عَرَفْتُ!!

فأطرق عنترة غائبًا فى فِكْره، واستمر شيبوبٌ:

– لَشَدَّ ما تغيرتَ حتى كأنك لَسْتَ أخى. فلم يَمْلك عنترة أنْ ضَحِكَ وقال:

– كَفى حديثًا عنك وعنى وعَنْ هؤلاء. لقد سألتك أن تُحَدِّثنى عنها.

فقال شيبوبٌ: وماذا أقولُ لك عنها؟ سوف يَكُونُ زِفَافُها بَعد ثَلاثٍ، سيكون زفافُها يَوم عَرُوبَة(٧).

٦ عنترة لن يرضى بعبلة زوجًا له، إذا هى رضيت بغيره

فصاح عنترة: أتقول إنها رَضيَتْ؟!! فقال شيبوبٌ: لم أَقُلْ رَضِيَتْ، وماذا يَعْنينى إذا كانت رَضِيتْ أو أَبَتْ؟ لقد رَضِىَ أبوها، ولسوفَ أحرق قلبها وقلب مالك بن قراد وعمرو بن مالك، بل سوف أَحْرِقُ قلب عمارة بن زياد عندما أُزَوِّجُكَ مِنْ (هند بنت زهير). أمَا قُلتُ لك إن أباها زهيرًا قد قُتِل؟ لقد صارَابنه قيس سيد عبس.

(٧) 📖 يوم عروبة: يوم الجمعة.

KTABYEG.COM

فقال عنترة: أَقُتِلَ زهير؟ أَمَا إنه قد كان سَيِّدًا كريمًا. وسكت لحظة ثم قال فى هدوء: هِند، قيس، زهير، هذه كلها أسماء أَسْمَع لفظها، ولكن عَبْلَة قد تزوجت، أما تقول: إنَّ زفافها يوم عَروبة؟

فقال شيبوبٌ: نعم، يوم عَروبة.

وجعلَ يعدُّ الأيام على أصابعه وقال: بعدَ ثلاثةِ أيامٍ!

فأطرق عنترة ومضى شيبوب فى حَدِيثه يَذكُرُ حَوادِثَ تلك السنين فى سياقٍ مضطَرب مُتَدفق، وكان عنترةُ يُغَمْغِمُ فى إطراقِه بنغمٍ حزينٍ، ثم رفع رأسه بعد حينٍ وقال:

إذًا سوف أعودُ إلى عَبس فأمرُّ بِعُرْسها آخرَ الأمر، كأننى مَكْدُودٌ(٨) سار يطلب الحَجَّ إلى الكَعبة فمر فى طريقِه بِقَصْرِ بخيلٍ يُحْيى وليمةً؛ فجعلَ ينظر إلى الأضواء المنبعثة من القصر، ويسمع أَصْوات الغناء والمرح والقَصْف، وهو يَسيرُ ضعيفًا محرومًا خَافِتَ الأنفاس.

إنك قد ملأتَ قَلْبى حزنًا يا شيبوبُ، وأُحِسُّ كأن هذا الفضاء يَضيقُ بى، أقلت آنفًا: إن عبلة كانت تُغَنِّى؟!!

فقال شيبوبٌ فى رفق: لم أَقُلْ إنها كانت تغنى، لقد سمعت الغناء مِنْ خبائها، ولكنَّها امرأةٌ وأُحِبُّ أن أراها تأكل قَلْبها غيظًا من الحزن، إذا رَأَتْكَ وأنت تعود إلى عبسٍ بهذه القافلة كلِّها.

فقال عنترةُ: أَمْسِكْ، وَيْلَك يا شيبوبُ، فإن الجُرْحَ لا يزالُ داميًا، كنت حَسِبْتُ أنه قد انْدَمل(٩)، وكنت أسألُ نفسِى: كيف أكون إذا عُدْتُ إلى أرضِى ورأيتها؟ وها أنت هذا تُعِيدُنى إلى نفسى القديمة فجأة، كأن تِلك السنوات قد طُوِيَتْ كلُّها فى يوم، فأنا اليوم كما كنت مِنْ سنين لم يتغيَّرْ فى قَلْبى شىء.

فقال شيبوبٌ: وأما أنا فإن قلبى مُمْتلئٌ حِقدًا كما كان ممتلئًا حقدًا، فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء، تتذَلَّلُ لهم وتطلب منهم بَناتِهم فيقولون لك: إنك ابنُ زبيبةَ؟!

فقال عنترةُ: لستُ أدرى كيف ألقاهم وكيْف يَلْقَوْنَنِى! إنى نسيتُهم حينًا، وخُيِّلَ إلىَّ أننى لنْ أُحِسَّ لهم خَلْجَة فى طيّات نَفسى.

ولكنى لستُ أدرى! وأمسك عن الكلام حينًا، وتَبلَّلتْ عيناه بالدمع، ثم قال: لن أَرْضَى أن تكون عبلة امرأتى إذا هِى رَضِيَتْ بِغَيْرى.

فصاح شيبوبٌ: أَوَتَرْضَى بها أنتَ إنْ رَضِيَتْ بك؟

فقال عنترة فى رقة: أتقولُ: إنك لم تَرها؟ ألم تَقَعْ عينُك عليها يومًا تطلعُ كالشمس، وتُزْهِر كالقمر، ويَفُوحُ نَسِيمها كالزهر؟ أَمَا سَمِعْتَها تتحدَّث؟ أما سمِعتَ زبيبةَ تتحدَّث عنها؟ ولكننى لن أَرْضَى بها إلا إذا كانت هِىَ تَرْضَى بِى.

فضحك شيبوبٌ قائلًا: هذا خَطْبٌ يسيرٌ يا عنترةُ. اطلعْ عليها بهذه الإبلِ ولسوف تَفُوزُ برضاها.

فأمسك عنترة بذراع أخيه وقال له جادًّا: قلتُ لكَ: إنك تُثِيرُ نفسى، وتَمْلأ صَدْرِى غضبًا. اسمع أيها... اسمع يا شيبوبُ ولا تتردد فى حَرْف مما أقول، اسمع وأطِعْنى فيما أقول حرفًا حرفًا.

فنظر إليه شيبوب خاضعًا وقال: سَتَجدُنِى مُطيعًا.

٧ عنترة يقرر توزيع كل أملاكه على عبلة ووالدها وفقراء قومه

فقال عنترة: لست أحبُّ أن أعودَ إلى عبس إلا كما خَرَجْتُ منها، ولسوف أعود إليها ألتمِسُ قُوتى بِقَوْسى وسَهْمِى وسَيْفى، لن أحرصَ على جَاهٍ ولا على نَسبٍ؛ فإنى رأيتُ من الحياة ما زَهَّدَنِى فى كل جاهٍ ونسَبٍ، لقد كنتُ أَغْضَبُ لأشياءَ أراها اليومَ لا تُغْضِبُنى، كنت أغضبُ إذا لم أجِدْ لى بينَ الناس مكانًا، ولكنى اليوم لا أُبالى أينَ أكونُ بين الناس، لا أُبَالِى بِشَىْءٍ من كل ذلك يا شيبوب، فاسمعْ وأطِعْ كما قلتُ لك.

(٨) مكدود: مرهق.

(٩) اندمل: برئ.

KTABYEG.COM

ثم التفتَ إلى القافلةِ العظيمة – وكانت تَسيرُ فى طريقها نحو أرض الشَّربَّة – وقال:

أترى هذه القَافِلة التى تملأ البِطاح؟ اذهب وَراءَها إلى منازل عبس حتى إذا ما جئْتَها فَنادِ المسـاكينَ الذين كانوا يسيرونَ ورائى ويُحَاربون معى، وادْعُ الصعاليكَ الذين كانوا يَلُوذُون بى، فَفَرِّقْ هذه الأحمالَ فيهم حتى لا تُبْقِىَ منها شـيئًا، كلُّ عبيدى هؤلاء أحْرَارٌ، ولهم من القافلة ما شَـاءوا، ثم امْضِ بهذه الإبل التى تَراها بين سَـوْدَاءَ وبيضاءَ فَفَرِّقْها بين الضُّعفَاء حتى لا تُبْقىَ منهـم واحدًا فقيرًا، فإذا بَقِيَتْ منها بعد ذلك بقيةٌ فانْحَرْها وألقِ بها فى القَفْرِ؛ لتكـون وَليمَةً لِوَحْشِ السِّـباعِ، وهذه النُّوقُ العصافيرُ التى أتَيتُ بها لتكونَ مَهر عبلةَ، اذهب بها إلى مَالك بنِ قرادٍ، وقُلْ له: هى هَدِيةٌ لعبلة لِيَنْحَرَها يَوْم زفافها، وَيُطْعِمَ منها قوم عمارة بن زياد ومَنْ يجىءُ مِنْ أحياء العرب ليشـهدوا عُرْسـه، ثم احمل هذه الأحمال التى تراهَا فى آخر القافلة على الإبل السوداء، فقد أوْدَعْتُ فيها تُحفًا مِنْ طرائفِ العراق وفارس وأذربيجان؛ لتكون هديةً لعبلة يوم جَلْوَتها(١٠)، فخذ هذه واذهبْ بها إليها هى وأبلغها أننى كنت وَعدتُها يومًا فى غَضبِى أن أُهْدِىَ إليها هَدِية يوم زفافها. قُلْ لها: هذه هديتى بدلَ تلك التى وَعَدْتُها... قم منذ الساعة ولا تَنْطِقْ بحرفٍ، وسأنتظر هنا حتى تُنَفِّذ أمرى وتَعُودَ إلىَّ بعد ثلاث. وأراد شيبوبٌ أن يتكلم، فأشار إليه عنترةُ يأمُره بالسكوت قائلًا:

أما وَعَدْتَ أنك تُطِيعنِى؟ اذْهب وافعل ما أَمرتُك، ولا تَنْطقْ بحرف يا شيبوبُ.

ثم وَثَب على فرسِه، وأغْمَد فى جَنْبه الرِّكاب فانطلَق به فى الوادى، ووقفَ شيبوبٌ حينًا ينظر إليه، ثم هَزَّ رأسَه وسار يَقُود القافلةَ نحو ديارِ عبسٍ.

(١٠) جلوتها: عرْسها وزفافها.

KTABYEG.COM

تفاصيل الأحداث

١ عنترة يعيش وحيدًا فى صراع نَفْسى

أمْضَى عنترة الأيام الثلاثَة يَضْربُ فى فِجَاج(١) الصحراء يَصِيدُ طعامَه كما كان يَفعلُ مِنْ قَبل، وكان فى أثناء ذلك مُوَزَّعًا بين مَوْجات عنيفة من أَشْجَانٍ مُتَصادمة، فكان حينًا يثور به الحزنُ والجَوى(٢) حتى يَرى الفضاء يَضيقُ به، وحينًا تَدْفعُه موجةٌ أخرى من الغضب حتى يَهُبَّ فينطلقَ بجواده فى البَراح سواءٌ أكان فى ليل أم نهار، وكانت تعتريه بين هذه وتلك حالاتُ هُدوء سَاهِم(٣) وَاجِم(٤)، فَيُحس كأن قلبه قد جَمد وسلا، فلم يبق فيه ما يَحْمِلُه عن حزن ولا عَلى غَضَب، وكان فى أثناء ذلك كله يَتنقَّل مِنْ مكان إلى مكان حيث كان ينتقل من قبل إذْ كان يَرْعَى إبل شداد، وهو بينَ حينٍ وآخر يُغنى بشعر يتدفق به مُسْتعيدًا ذكرياته. كان يعرج على الصخور الملساء التى طالما تَوَغَّل فيها(٥) بعد زوال المطر، وشَربَ مِنْ مائها البارد الصَّافِى، ويُعَرِّج على بُطُون الأوديةِ التى تَشَقق طينُها الأصفر بعد أن جَفَّ، وكان يميلُ بين حين وآخر على زهرة من العرار بين الشَّوْك، أو عود منَ الخُزَامى(٦) بين الصبير(٧)، أو أقحوانة(٨) بين الحنظل(٩)، فيتأمل شكلَها ويَشمُّ رائحتها كأنه يسألها: كيف يَثْوى(١٠) الزهر بين الشَّوك؟ والمُراد كيف تعيش عبلة فى عبس؟!!

وكانت تلك الجَوْلَات تُعِيدُ إليه اطمئنانَه بعد أن يملأ صَدْره من الهواء كما كان يملؤه إذ كان فتًى خاليًا. وكان كلما تذكَّر أنه قد تَخَلَّص من الأموال العظيمة التى حَمَلَها معه من المدائن والحِيرَة أحسَّ ارتياحًا كأنه قد تخلَّص من ثِقْل كان يَجْثِمُ فوق صدره، ودَبَّ إليه شعورٌ عجيب بأنه قد استعاد روحه الذى كان قد فارقه مُنذ دخل أرض العراق.

وعند ذلك كانت تلك السنواتُ التى قضاها بعيدًا عن أَرضه تَلُوحُ له كأنها سنواتُ سِجن ضَيِّق شَاهَتْ فيها نفسه(١١) حتى كاد يُنْكرُها، وتَغَيَّر فيها قلبه حتى كاد لا يعرف نَبْضَه. وخُيِّل إليه أنَّه قد فارق ذلك السجنَ إلى حيث يستطيعُ أن يعرفَ النور وحيث يرى النجومَ الساطعة والبدر المتألِّق والشمس التى تَبْسم حينًا، وتَحْرِق حينًا، والهواء الذى يَعْصِفُ مرةً، ويَهُبُّ فى وَدَاعةٍ مَرة أخرى.

ولم يَخْلُ قلبُه فى كُلِّ تلك الجَوْلات مِنْ ذِكْر عبلة، ولكنه كان كلما ذكرها عَجبَ أشَدَّ العَجَب مِنْ هدوئه، كأنه كان واثقًا من أنها لا تزال تنتظرُه، فإذا تَذَكَّر عمارة بن زياد لم يغضب ولم يَحْقِدْ، بل كان قلبُه يَعطِفُ عليه كأنما يواسيه عن انصراف عبلة عنه، وكان يُنَاجِى صُورتها ويتَمثَّلها تُقْبلُ عليه باكيةً معتذرةً تعيد عليه كلمتها يوم وَدعَتْهُ فى شَيْبان: «سوفَ أَنتظرُك وإن طَالَتْ غيبتُك».

ومضَى اليوم الثالث، وانقضى يومُ عَروبة، وعاد إلى الرَّبوة التى لَقِى عليها «شيبوب» يوم عاد إلى أرض الشِّربَّة فى قافلته العظيمة.

(١) فِجاج: الفج: الطريق الواسع بين جبلين.
(٢) الجوى: شدة الحزن.
(٣) ساهِم: متغير لونه من الهم والحزن.
(٤) واجم: ساكت من شدة الحزن.
(٥) توغل فيها: صعد فيها.
(٦) الخزامى: نبات طيب الرائحة.
(٧) الصبير: نوع من النبات طيب الرائحة.
(٨) أقحوانة: الجمع: أقاحٍ، نبات زهره أبيض، وورقه كأسنان المنشار لا رائحة له، ومنه: (البابونج).
(٩) الحنظل: نبات شديد المرارة.
(١٠) يثوى: يستقر ويسكن.
(١١) شاهت فيها نفسه: قبحت.

KTABYEG.COM

وهَبطَ عليه الظَّلامُ فَجْأَة بعد غروب الشمس، فَدخلَ إلى صدره شيءٌ من الوحشةِ، وسأل نفسه: ليت شعرى؛ ما الذى عَاق «شَيبوب» فلم يَعُدْ إلىَّ؟ أتكونُ عبلة قد زُفَّت حقًّا إلى عِمارة؟ ثم طلع القمرُ فأضاء الفضاءَ وأَخذ عنترةُ فَضْلَةً من لَحم غزال بَقِيَتْ عنده، وقضَى الليلة مُتَغنِّيًا بشِعْرِه حتى طَلَع الفجر، فأغفى إغفاءةً أفاق منها على صَوْتٍ يُناديه والشمسُ تُرْسلُ شُعاعها عليه من وراء التلال.

٢ لقاء عنترة بأمه وقومه

ثم رأى زبيبة، فقام مُسرعًا يَثبُ فوق الرمال حتى أحس بنفسه بين ذراعى أمه. وأرسلَت زبيبة ابنها من بين ذراعيها وجعلت تنظر إليه فى دهشة وإعجاب، ثم زَغْرَدَت وأَلْقت نَفْسها عليه مرة أخرى وهو يمسحُ على رأسها بعطف، وتبلَّلتْ عيناها دَمعًا، وقالت بصوت مختنق:

– لقد كُنت أُحسُّ منذ فارقتنى أنك عائدٌ إلىَّ يومًا، لم أُصَدِّقْ ما قال شيبوب ولا ما قال الناس عنك.

ولَم يَجد عنترة فى دَفْعة اللقاء ما جعله يَفْرغ إلى تَأَمُّل ملابس أمه وأخيه، فقد كانا يلبسان تلافيق (١٢) عجيبة من الثياب اختارها كُلٌّ منهما طوعَ هَواه من أحمال القافلة.

فكانت زبيبةُ فى حُلَّةٍ حمراء، وفى قدميها خُف من الفرو الأسود وتَمَنْطَقَتْ (١٣) بمنْطقةٍ فِضِّية نَزَعتها مِنْ حمائِل (١٤) سيفٍ، وتَقَلَّدَتْ ببعض قلائد من العقيق والمَرْجَان، وجعلت على يديها أَساوِرَ مِنَ الفِضة والذهب والكهرمان.

وكان شيبوب يلبس عمَامةً ذات ريشة عالية، ولآلِئ تبرق من تحتها، ويتلفع بثوب مُحَلَّى بالقصب، وجعلَ فى وسطه سيفًا مُحَلَّى بالذهب والفضة، ولم يَبْخَلْ على رُمْحه بحلية من عُقُود المَرْجَان وشرائط الحرير.

وتَبسَّم عنترةُ عندما تَنبَّه إلى مَلْبَسهما، ولكنه لم يَجِدْ مُتَّسعًا للحديث، فقد رأى رَكْبًا عظيمًا يُقْبل عليه وراء ثنية الوادى، فنظر إلى القادمين وتهلل وجهه فرحًا، وهمس إلى شيبوب:

أكان الزفاف يَوْم عروبة؟ فَغَمز شيبوب بعينه مرحًا، وقال فى خُبْث: سوف أُحَدِّثُك طويلًا.

وجاء القوم جمعًا بعد جَمع يُحيُّون عنترة، وكان الفتيان فوق الخيول يَملئون البطحاء الممتدة بين الكثبان، يهتفون باسم عنترة، ويُلوِّحُون بالسيوف والرماح. وجاء فى صدر الجموع (قَيْسُ بن زهير) سيد عبس فى (آل جذيمة وآل شداد)، وجاء من بعدهم سادةُ عَبْس وفيهم (عمارة بن زياد).

وكان عنترة يلقاهم بَاسمًا، ويُحيِّيهمْ وهو مُتَحرك الشُّجون، وكانوا ينظرون إليه فى عَجب: أذاكَ هو عنترة؟ وكان النساء والفتيات يقبلْن عليه ضَاحكات يُرَحِّبْن به ويَرْفَعْن أيديهنَّ إلى نُحُورهن يَلْمِسْنَ العقود المتلألئة التى بعث بها إليهن، ويُلَوِّحْن بمعاصمهن لِيُظْهرن الأساور التى أخذنها من هداياه.

٣ الفرحة بلقاء الحبيبين عنترة وعبلة

ثم جاءت أخته (مروة) وإلى جانبها عبلة تمشى على استحياء، فرآهما وما يرى فيهما سِوَى عبلة تنظر نحوه فى خَفَر (١٥)، وتكاد تَتَعثَّرُ فِى مشْيتها، وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة، ولكنها كانت بَسْمةً مُتَرددة فيها شيءٌ مِنَ الارتباك وشيء من الخَشْية.

وَحيَّا عنترة أخته باسمًا عَاطِفًا، ولكنه كان مَشْغُولًا فيما يقوله إذ سَلَّمَتْ عليه عبلة، ومرت عليه لحظة قصيرةٌ طويلة، ثم سَمِع أخته تَضْحَك، وتقول له فى عَبثِها كَعادتِها:

(١٢) تلافيق: أشكال وألوان، المفرد (تلفيق).
(١٣) 📖 تمنطقت: شدت وسطها.
(١٤) حمائل: علاقة السيف، المفرد: حِملة.
(١٥) 📖 خفر: حياء.

KTABYEG.COM

– لقد حَسبتُ أنك سوف تَخْطِفُ عبلة منذ تَقَع عينك عليها.

فنظر إلى عبلة وابتسم لها، وما كاد يأخذ يدَها حتى وجد أنه يُقاوِم دافعًا قويًّا لا يقوى عليه.

وسمعها تقول له فى همس: – مَرْحبًا بك عنترة.

فَهَمَّ أن يرفع يدها إلى شَفَتيه فأحسَّتْ بحركته فَقَبضتْ يَدها فى رفْق، وحاولت أن تَجد لفظًا تَتَوارى(١٦) به عن أعين الذين أحسَّتْ نظراتهم جميعًا تقع عليها، ولكنها لم تجد لفظًا، فأطرقت وغَمغَمت ببعض ألفاظٍ مضْطَربةٍ، وخُيِّل إليها أن تلك اللحظة القصيرة قد امتدَّتْ دَهْرًا، فَلَوتْ رأسها تريدُ أن تُفْسِحَ لغيرها ممَّن ازْدَحَمْنَ حولها لتحية عنترة. فقال عنترة كأنه يَنْطق بغير وَعْيه: سَيِّدتى؟!!

وما كاد يُتمُّ كلمته حتى صاحَتْ أختهُ (مروة) ضَاحِكَة فى خُبْثها:

– أما سمعتم قوله؟ عنترة عبْدُ عبلة؟

فانفجرت ضحْكة مِنَ الحاضرين ونظرت عَبْلة عَاتِبةً، واحمرَّ وجهُها، ولكنَّ سحابة الوجوم انقشعَتْ عند ذلك، وانطلق عنترة يقول لأخته فى مرح، وهو لا يزال مُمْسِكًا بيد عبلة: إنك –أيتها الأخت الحبيبة– تُذَكِّرينَنِى بأيامى السعيدة أيام كان عَبثُك يَغِيظُنى.

فقالت ضَاحِكةً: أما يَغِيظُكَ اليوم؟ واتَّجهت إلى عبلة فى خِفَّة قائلة: ولكنه ما زال يَغيظُها. انظر إليها كيف يَنْطقُ وجهها بكَراهتِى. ثم اتجهت إلى عنترة قائلة: ما هذا اللقاء الفاتِريا عنترة؟

ثم عادت إلى عَبْلَةَ فقالت لها:

– هَا هُو ذا دُونك فَتَعلَّقى برقبته. أما كنت تقولين لى: متى أراه؟

فعادَ الضحكُ إلى الجميع.

وغَربَتْ شمسُ ذلك اليوم مَرَّة أخرى كما غربت سائرَ الأيام. وكانت النيران تُوقَد فى شِعْب الجوَاء، وأصْدَاءُ الغناء تتردَّدُ بين الخيام مِنْ كُلِّ جانب بشعر عَنترة، واجتمع فتيانُ عبس على الخيل فى الفضاء الفسيح حول الحلة، يتطارَدُون ويتراقصون فوقَ الجياد، بَعْضهم واقف على ظهرها وبعضهم يتقلب فوقها ويدور من تحت بُطونها، وخرج فيهم عنترة، وكانت عبلة على جَوادِها إلى جانبه حتى إذا صَارَ فى وَسط الحِلة تقدَّم عنترة شاهرًا سيفه فى ضوء النيران الموقدة، وركض جواده فى وسط الحِلة، منشدًا:

أَرضُ الشِّـــربَّة تُـرْبُهـا كالعَنْبـرِ ... ونَسـيمُها يَسْـرى بمسْـكٍ أَذْفـرِ(١٧)

يا عَبْـلُ كَـمْ مِـنْ غَمْـرةٍ باشَـرْتُها ... بمُثَـقَّفٍ(١٨) صُـلْبِ القوائم أَسْـمرِ

فأتيتُها والشمسُ فـى كَبـد السما ... والقـوم بيـن مُقـدَّم ومؤخَّـرِ

وكانت الأصداءُ تتردد فى الفضاءِ مِنْ إنشادِ الفتيان فى نواحى الميدان:

أنـا فـى الحَـرْبِ العَـوانِ ... غَـيْـرُمَـجْـهـول الـمـكـانِ

أينـمـا نَـادَى المُـنَـادِى ... فـى دُجَـى النَّقْـع يَـرانِـى

خُـلِـقَ الـرُّمْـح لِكَـفِّـى ... والـحُـسَـام الـهُـنْـدوانِـى

(١٦) تتوارى: تختفى. (١٧) أذفر: طيب الرائحة. (١٨) مثقف: رمح معتدل.

KTABYEG.COM

وهمَـــا فـــى المهـــدِ كَـــانَا فَـــوْق رَأســـى يُـؤْنِـسَـــانِـــى
أَتْـــــرُكُ الـقـــوم حَـيـــارَى مِـــنْ ضِـــرابِى وطِعَـــانِـــى

ولما انتهى الحفلُ الصاخبُ إلى مطلع الفجر ركب عنترة وزوجُه إلى السرادق العظيم الذى أقامه شيبوبٌ لهما فى أَقْصى الحِلة، ذلك السرادق الذى أهْداهُ إليه كسرى وما زالت قبائل العرب تتحدَّث عنه، كأنه المدينة إذا أُقيمَت قوائمه. كانت جوانبه محلَّاةً بنقوش الذهب ودعائمه ملبَّسة بصفائح الفضة، فإذا أضاءَت فيه المصابيح فى الليل تلألأت أنوارها فوق فُصُوصِ الجواهر المنثورة على جَوانبه.

وسار شيبوب وَرَاءهما يُشَيِّعُهما حتى دَخَلا فى السُّرادق، فقال ينادى عنترة:

– أما كنت تُريدُ أَنْ أُحَدِّثك طَويلًا؟!!

فنظر عنترة إليه باسمًا، ثم التفت إلى عَبْلة وأمسك بكتفيها ناظرًا إلى عَيْنيها، وقال:

– لا بأسَ عليك يا شيبوب، فإنى أُحِبُّ سماعَ الحديث منها.

KTABYEG.COM